



سبعة باشاوات وصور أخرى

محمد عودة



إصدارات
خاصة



سبعة باشوات

وصور أخرى

محمد عودة



الهيئة العامة لقصور الثقافة



رئيس مجلس الإدارة

د. مصطفى علوي

أمين عام النشر

مصطفى السعدني

الإشراف العام

فكري النقاش

سكرتير التحرير

عماد مطاوع



الغلاف والإشراف الفني

أحمد الجنائني



الناشر: صلاح عبد الحليم

يناير

2005

◦ قبل أن تقرأ

كان من تقاليد الأرستقراطية البريطانية في القرن التاسع عشر قضاء اجازة عيد الميلاد وأحيانا فصل الشتاء في مصر ما بين القاهرة والأهرام والمتحف المصري ثم الأقصر ثم أسوان.. والعودة !

وكان هناك طائفة من التراجمة والأدلاء يجيدون اللغة ويقومون بمرافقتهم .

وجاء «ويلفرن سكاون بلانت» وزوجته ومعهما توصية من أحد أصحابهم إلى طالب أزهري يقوم بالمهمة اسمه إبراهيم .

ويمحض الصدفه التقيا بإبراهيم آخر كان يمارس المهنة ولكنه كان أيضا من شباب الثورة العربية المتحمسين وكانت في أوجها . وكان ذلك نقطة التحول في حياتهما .

فتن الزوجان بمصر القديمة وأثارها وتراثها، ولكن بفضل إبراهيم فتنا بالحضارة القديمة وأثارها وراثها وفتنا أيضا وينفس القدر بأن الشعلة لازالت متقدة وعلى أشدها، وأن

المصريين يواجهون بشجاعة وبراعة خصما أشد وأقسى هو الإمبراطورية البريطانية التي تحكم.. وتُحكم حتى أمواج البحار كما يقول نشيدها الوطني .

واستطاع المرافق الأزهرى أن يقنع السائح البريطانى وأن يجنده لقضية بلاده بل وأن يندّر لها حياته، بل وأصبح كما سماه عرابى والشيخ محمد عبده وزير خارجية الثورة ومرشدها فى غاية الدبلوماسية البريطانية والأوروبية .

وشارك بلنت مع عرابى والشيخ محمد عبده فى تكوين وإعداد برنامج الحزب الوطنى المصرى وأصبح من قادة .

وبعد أن هزمت الثورة كتب بلنت كتابا كلاسيكيا بعنوان « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر» فضع فيه كل مخازى السياسة والدبلوماسية البريطانية والتي وصفها بأنها (أقذر وأسطر سياسة ودبلوماسية فى تاريخ القرن).

وقرر بلنت أن يتخذ له بيتا فى مصر يقيم به أكثر فصول السنة، وفجع فجيحة كبرى بمأساة دنشواى ونصح كرومر والحكومة البريطانية بتعيين سعد زغلول وزيراً لأنه وحده الذى يستطيع أن يضمم هذا الجرح الدامى وأن يعيد بعض الثقة للمصريين .

وصلت الحكومة بالنصيحة وعين سعد زغلول وزيراً للمعارف وقال كرومر وهو يغادر مصر: «لقد علمنى سعد زغلول كيف أحترمه وإننى أتوقع له مستقبلاً هذا فى حياة بلاده» .

كان بلنت يؤمن أن المصري يختزن فى أعماقه أثنى تراث قديم ووسيط وحديث وأن الشعب العريق لا مناص أن يسترد نفسه بل إنها تذبل أحياناً ولكن لا تضيق قط .

وقدر لمستر بلنت أن يعيش حتى تتحقق نبوءته، وحين انتفض الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول كان أول المهنيين ويحث إلى سعد فى باريس يهتف ويؤكد له أن الشعلة لن تنطفئ بعد الآن.. وقد حاولت أن أحقق نبوءته فى هذا الكتاب الذى تعيد هيئة قصور الثقافة طباعته والذى قدم طبعته الأولى الصديق العزيز الكاتب الكبير يوسف ادريس .

محمد عودة

هذا الكتاب

بقلم/ د. يوسف إدريس

أعترف أنني من مدة طويلة لم أقرأ كتاباً انفعلت به إلى هذه الدرجة.. إن قصة المنفى، قصة الزغوليات، ونازلي، وطبيب الولادة، هذه كلها كنوز حية كانت مخبوءة.. حافلة وغنية ورسمة ورائعة ومحبوبة... وجاء هذا الكتاب ليكشف عنها الغطاء ويجسدها حية نابضة أمام أعيننا نقاملها ونستوحىها ونقف أمامها طويلاً طويلاً .

وأن يجيء هذا الكتاب من الصديق الفنان محمد عودة ليس بالأمر الغريب فهذه ثأني مفاجأة يفاجئني بها في حياته . كانت مفاجأته الأولى لي كتابه عن الصين الشعبية.. بل كانت المفاجأة الأولى في الحقيقة هي محمد عودة نفسه، كان اكتشافاً لم أعمل له حساباً قط.. في أواخر سنواتي بكلية الطب بدأت أكتب وبدأت أتعرف على مجالس الكتاب من ذلك الحين وبالذات

مجلس المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي الذي كان محله المختار.. مقهى «يزاهتش» هناك حول سندوتشات الفول والمشروبات الرخيصة كان ينور كلام كثير حول الأدب والفن والخلق والقصة والشعر، وكنت في العادة أخذ موقف المستمع المستغرب لكل ما يقال غير الموافق على معظمه .

كنت قد بدأت أتطلع من بعيد إلى عالم الفن، ذلك الذي لم أتصور طيلة حياتي أن ستكون لي به صلة. كنت قد أعددت نفسي ندما للعم وبإرادة حديدية كنت قد وطنت نفسي ألا أحيث عن الطريق، فإذا بذلك لعالم السحري يقلب لي وينترع بعصري «نترعا حتى لم أعد أستطيع رؤية سواء

في ذلك المقهى، ومهما كان لوقت الذي ذهب إليه فيه، أو أمر من أمامه، كنت دائما أرى إسبانيا عربيا حالما يحدق في الأشياء وهي كل شيء. إسبانيا تنطبع ملامحه في ذاكرتك منذ الحطة الأولى، وأبدا لا تستطيع بعد سميانه، كنت كثيرا ما أفكر في هذا الإنسان وأحاول أن أخمن من يكون وماذا يفعل وما لسر العريب وراء تخديفته المستمرة .

بعد أعوام قليلة أصبحت كاتب وصدر لي أول كتاب. وبدأت أنا الآخر أضعف ببعض ببعض ما أعنقده عن الفن والكتابة، وبدأت

يوم وقع في يدي كتاب أصفر الغلاف ما كنت أبداً في قراءة أول صفحة منه حتى وجدتني قد عرفت فيه تماماً وسيت كل ما حولي كان الكتاب عن الصين الشعبية وقصة ثورتها الصوية المهيولة بكل ما فيها من نجاح وانتكاس

كتاب عربي حقا لأني بعد قراعتي لكتب المادية الماركسية أصبح تاريخ أي شيء وبلادات تاريخ الثورات الشعبية معادلات بسيطة لا تأخذ أكثر من دقائق لسطر بها تاريخ أي شعب وتستوعب ثورته، ولكن كتاب محمد عودة هذا عن الصين الشعبية، جاء شيئاً حراً، لم يأت معادلات جامدة، ولا تحليلات تقليدية معتداً وإنما جاء قصة رائعة مجيدة تنمى بكل قوابع التاريخ وتجعل من ملاحمه دراما حية إنه التاريخ حين يكنه قمار برع حقا، واسع الخيال إلى درجة القدرة على تحسيد الحقائق، موعلا في الإيمان بالموضوع الذي يكتب عنه إلى حد الخلق، خلقه حيا، جديداً، ساطعاً وكأنك براه أو تقرؤه لأول مرة ولأول مرة تسمع عنه .

كان الفرق بين كتاب محمد عودة عن الصين الشعبية وأي كتاب تاريخ آخر هو أن كتب التاريخ تحوى الحقائق فقط، الحقائق وقد حردت من طاقاتها ومخزوماتها الإفعالية، حقائق

ميته كالأرقام والإحصاءات، كتاب عودة عن الصين الشعبية كان كتاب حياة، مليئا بالحياة، صادقا إلى الدرجة التي كنت أحس فيها أني لا أقرأ عن تاريخ الصين وثورتها وإنما أقرأ عن تاريخ شعبي أنا وثوراته.. هذا هو منتهي الصديق.. وهذه هي قمة الحقيقة، فالحقائق الناقصة هي التي تبدو وكأنها حقائق جامدة، الحقائق الكاملة فقط هي التي تتصل اتصالا وثيقا بحقائق تكون لكبرى وحقائق الحياة، هي التي تدور فيها قصة الشخص الحقيقية وكأنها هي قصة كل الأشخاص، وقصة الشعب الحقيقية وكأنها قصة كل الشعوب وقصة الثورة الحقيقية وكأنها قصة كل الثورات .

أما المعالجة الثانية أو الثالثة فقد كانت هذا الكتاب الذي أعتر بتقديمه إلى القراء، وأعتر أكثر أن الصديق العار محمد عودة هو الذي طلب مني هذا .

ذلك أن علاقتي بمحمد عودة واحدة من اندر وأغرب وأعقد لعلاقات التي تحفل بها حياتي . وكلمة الصديق نفسها غير كافية أبدا للتعبير عن كل ما ترحر به تلك العلاقة وتحفل... إنها علاقة خصبة غنية، أوسع وأرحب من أن تكون صدقة وأحفل من أن تكون زمالة ومليئة بهلإهات ومتناقضات لايمكن أن

تندرج تحت باب الاتفاق الكامل. علاقة حافلة بالشد والجذب والمحبة ولغضب والوئام والاستنكار الشديد والعراك في بعض الأحيان. ذلك أنها علاقة مع إنسان فنان.. والفنان لحقيقى كونه جافلا، وحافل بكل ما تحصل به الأكوان من مسسات نادرة وصحارى وجبال ووحوش وغابات.. عبر أن الذى أستطيع أن أؤكد أنه هو أنها علاقة لا يمكن أن تنتهى أو تقطع، مهما حملناه من أثقال، فمحمد عودة و حد من المثقفين القليلين في مصر الذين يؤمنون إيمانا بيلع حد الهوس - و لهوس هذا ليس عيب وإنه هو في رأيي قمة الإيمان - بثلاثة أشياء هي نفسها كل ما وهبت نفسي له

هو ثائر ومؤمن بالثورة

وهو شعبي ومؤمن بالشعب .

وهو اشتراكي ومؤمن بالاشتراكية. تتوز البركين وتحمده. وتترززل الأرض وتتشفق، يسعير الحكام الكبار والصغار ويتبدلون. وعودة هو ذلك المؤمن العييد بها الثالوث المقدس، لا يتزعزع لا يترجح. لا يهائن، لا يعفر. وهو ليس إيمانا أعمى ولا إيمانا سهلا أيضا، إنه معركة المسمرة المنصلة مع كل الناس أحيانا إذا اقتضى الأمر

حتى مع الاشتراكيين أنفسهم والشعبيين والثوريين، فالإيمان
عده ليس شيئاً عقلياً يرتاح إليه وينتهي، إنه حياته وطريقة
حياته وهدف حياته .

وأشهد أن عيوني كانت أحياناً تغرورق بالدموع وأن أقرأ له
بعض صفحات هذا الكتاب ، صفحات لا أرى متى كتبها ولا
أين كتبها ولكنى كنت أحس أن كاتبها واحد من هؤلاء الذين
تصوفوا في حب مصر والمصريين، باعوا كل شيء واشتروا هذا
الحب وراولوه واختزنوه وعاشوا يتعدون من رحيقه .

قد تبدو مقالات، كبعض المقالات، قد تبدو مستورة النهاية في
بعض الأحيان بطريقة تفيض وتقطع النبوءة قد تبدو نتفا متفرقة
من كتابات جبرتي حديث مجنون راح يضرب في صفحات
الحاضر بحثاً عن الماضي ويجوب أفاق الماضي ليضع يده على
قلب الحقيقة من الواقع الحاضر، ولكنى هكذا أخذتها لقد
أحسست أنها جزء من لحمي وأن دمي وعظامي، جزء مني، من
ذلك الكل الكبير، من بلدي وشعبي وباسي.. حتى بازلى الذكية
الأرستقراطية المتعجرفة، شعبها محمد عودة ومردّها وثورها
وحعلها تبدو كبطلة في أسطورة شعبية .

إن الميزة الكبرى لمحمد عودة، تلك التي تفرقه عن أى كاتب

سياسي آخر أو عن أي مفكر حر أو مؤرخ وكاتب قصة احر
أنه يكتب التاريخ إذا كتبه، ويصور الحاضر إذا صورته، كما
يجب أن يكون، وكما يجب أن يكون.. وربما يقال إن هذا هو
عيبه الأكبر ولكنه قانون النبوغ لأوجد إن الميزة الأعظم دئما
هي العيب الأعظم .

وإني هنا إنما أقدم ميرته الأعظم، أما العيب فشركه لعبرى
من الناقدين والمتفادين .

لقد قلت مرة في كلمة لي عن محمد عودة إنه ليأحدث من
الجوهر المكنونة في قلب كل شيء.. إنه مفتش لكون العام،
وربما من هنا يأتي تحديقه لدائم وبهوله فهو باستمرار في
حالة بحث دائم عن جوهر الحقيقة الكبرى من الناس
والأشياء.. والأصدقاء والثورات والتاريخ وكثيرا ما ينوب من
بحثه خائب الأمل، وتدوخيبة الأمل واضحة تماما في ملامحه
وكتابات.. ولكنه في أحسن، أحسن قليلة بادرة، يعود منشراح
الأسارير واسع الانضمام، قد تحدث نظراته الباهمة وقالت وحده
وإني لأشكرك يا محمد عودة، هالآن وبعد أن انتهيت من
قراءة هذا الكتاب الثاني لك أهتف أنا الآخر مرة ثانية، وجدها
أشكرك، فلقد بلغتنى لرسالة .

◊ أسطورة الباشوات السبعة

لقد كانت حياتهم هنا أسطورة وقد خلفوا وراءهم نكوى حية
دائمة في قلب وروح سيلان .

«أنا لست هندية كما قد لا تعلم»

وابتسمت ابتسامة وديعة عذبة وقالت

أنا من جزيرة صغيرة حميلة تبعد أربعين ميلا فقط عن
الجنة .

- وما الذي يبقيك هنا بعيدا عن الحنة ؟

. قصة طويلة.. لا تهلك الليلة .

- كيف؟ أنا كاتب قصص وقد جئت من مصر إلى الهند

أبحث عن قصص ؟

وحملت في وجهي طويلا وقالت من مصر ؟

- نعم بلد الأهرام والتيل ورأس سمرتيتى وكثوز توت عنخ

أمون .

هذا لا يعنينى كثيرا، إن مخازن العاش ترخر بها الهند

هنا.. إبنى دائما بالحقيقة الواقعة .



إنى أنا من مصر ، من بلد يحوض معركة الحرية
والحصادة ربما منذ سنة ألف عام ولا توقف ولا كلل ولا
استسلام للهزيمة أو الانتصار على السواء
هذا أفصل قليلا.. وهذا أستطيع أن أفهمه لقد لعبت مصر
هذه هي حياتى دورا كبيرا . هل نصدق ؟
حياتك أنت ؟

. حياتى أنا . ولقد كانت هناك أسطورة مصرية من الواقع
أحيى تعيش هي سيلان ولا ترال تعيش وتروى هناك
وقد استمعت إليها ذات يوم من عمدة بلدا هي كاندى وظلت
محزونة فى نفسى حتى استيقظت ذات يوم وعبرت مجرى
حسنى كله . وفى كاندى كنت أذهب دائما إلى «مودليار عبد
الرحمن» عمدة البلدة السابق وكبر أهلها سنا وصديق جدى
الحميم . وأظل طويلا لديه ليروى لى قصص عجيبة عن نجاربه
خلال مائة عام طويلة عاشه فى الحرية ولم يعادها أبدا .

و ذات يوم روى لى مودليار عبد الرحمن قصة لباشوات
السبعة أو عراسى بشا والبشوات السبعة كما سمعهم . وهم
سبعة باشوات قاموا بثورة فى مصر ضد الإنجليز بعدما
استولوا على بلادهم . وجاء هؤلاء لباشوات مهرومين منفيين إلى

سيلاّن ولكن بدلا من أن يستسموا الهريمة اتحبوها وصا
وبدعوا حياة جديدة وقلّوا كل حياة الجزيرة رُسا على عقب
وتركو، في كل مكان أثرا ناقيا "

* * *

ودات يوم بعد عام طويل تلقيت خطابا من سيلاّن وكان من
شبيلا «إننى أعيش عمري الثامى هنا ولا بد أن يحصر لئرانى
ولتقيم معى أسبوعين على بعد أربعين ميلا من الحنة، بن المعركة
مستمرة حتى آخر لحظة من حياتنا، وجميع أن يحقّق الإنسان
انتصاره الأخير في الأرض التي حرق منها .

«إننى الآن أنظم نقابات عاملات الشاي في سيلاّن، إنهن
أشقى منور الإنسانية وعمّا قليل سيصبح هؤلاء سم سيلاّن على
خريطة العالم السياسية الثورية» .

«إننى أريدك أن تحصر إنمى هي حاجة إلى نوقت جميعه
كتلك التي قضيناها في نومباي وقد قامت مودليار عند لرحمى
الذى لا يزال حيا.. لا تريد أن تزور قبور مواهنيك في سيلاّن
وأن تكمل قصة البحث عن نفسك أو الهرب منها »

وسافرت إلى سيلاّن ، إلى كاندى حيث كانت تعمل «شبيلا»
وحيث عاش يومها الباشوات السبعة وحيث يحفظ مودليار عند

الرحمن ويروى قصتهم وتراثهم

وَذَاتَ يَوْمٍ سَارَ مَوَكَّ فِي شَوَارِعِ كَانْدِي يَتَقَدَّمُهُ هَذَا الْكَهْلُ
الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَحْتَفِظُ بِحَيَوِيَّتِهِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي مِنْ عَمْرِهِ، وَقَدْ
حَمَلَهُ عَلَى مَحَلِّهِ هَرْقَةُ مِنْ عَامَلَاتِ الشَّأْيِ وَإِلَى جَوَارِهِ سَارَتْ
شَيْلًا مَعَى لِمُكْتَشَفِ أَثَرِ الْغُرِّ بَيْنَ فِي كَانْدِي .

وَانْطَلَقَ مَوْلَانِيارَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ يَرُوي مَرَّةً بِالْعَرَبِيَّةِ لَتِي يَتَكَلَّمُهَا
وَمَرَّةً بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّتِي يَحِيدُهَا أَكْثَرَ .

- لَقَدْ كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ رَأَيْتُ فِيهَا عَرَابِي بَاشَا يَوْمَ حَرَجَ لِلنَّاسِ
مِنْ عَزَلَتِهِ لِنَصَلِّي الْجُمُعَةَ وَقَدْ جَاءَ أَعْيَانُ كَانْدِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ
لِيَشْهَدُوا وَيَرْحَبُوا «بِالْبَاشَا الْمَصْرِيِّ» الَّذِي قَدِمَ .

وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ حَتَّى شَعَرَ الْجَمِيعَ بِهَيْبَةٍ كَثْرَى
وَاحْتِرَامٍ . كَانَ مَجْرَدُ مِثْلِهِ بِقَامَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ سَاطِطَةً أَيْضًا
كَفَيْلًا بَأَنَّهُ يَحُولُ إِلَيْهِ كُلُّ الْأَبْصَارِ .

وَبَعْدَ الصَّلَاةِ تَكَلَّمَ عَرَابِي بَاشَا قَلِيلًا وَلَمْ يَفْهَمْ كَلَامَهُ سِوَى
قُلُسِي وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْمَعُوا جَمِيعًا لِأَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِإِخْلَاصٍ
وَحَرَارَةٍ .

وَلَمْ تَمُضْ أَيَّامٌ حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ هُنَا عَلَى الرِّبْوَةِ الْعَالِيَةِ هُوَ
مَقْصِدُ الْجَمِيعِ فِي كَانْدِي .

ولقد كن المسلمون في ذلك الحين مغلقين لار لت عى عقولهم وأرو حهم غشاوة وكانوا لا يريدون الخروج منها لأن الخروج كان ككفر ومروقاً على الدين. ولقد قام مصلح من هذا اسمه «سدى ليبيه» حاول أن يقنعهم أن تعلم العلوم واللغات الحديثة وتعلم العادات الحديثة هو من جوهر الإسلام ولكنهم جميعاً صدوه وأسكتوه وظل خافت الصوت حتى جاء عرابى باشا ومند جاء لأرمة «سدى ليبيه» ووجدت آراء «سدى ليبيه» لإرادة والشخصية لتى استطاعت أن تصعب موضع لتعبد .

ووضع الاثنان يدهما فى يد بعضهما البعض وولدت ككر نبضة فى تاريخ مسمى سيلان. من هى ثورة نقلتهم من القرون الوسطى إلى العصر الحديث مباشرة

وحينما نذهب إلى كولومبو سترور هناك «لكلية الزهرة» وسترى البناء الوسع الشاهق وسترى أسماء المسلمين يتلفون دروس الكيمياء والطبيعة والهندسة جسا لجنب مع علوم دينهم وستقابل عزيز عميد الكلية ثمرة من ثمرات ثورة عرابى وسدى ليبيه، هناك تحت شجرة جور الهند ولاند أن تدعهم يقصفون لك إحدى ثمارها وتشرط ماعد لأن الذى زرع هذه الشجرة هو عرابى باشا بيده. وفى كل عام يقام الاحتفال بتفخيخ الطلبة

حولها .

وقد تسلم الخريجون الأول شهاداتهم من يد عراسى الذى كان يرأس حفلة النخرج كل عام طوال حياته فى الجزيرة ويورع بيده الشهادات .

ولقد احتفلوا باليوبيل الذهبى لهذه الكلية منذ أعوام وورعوا الكتاب الذى ألفه «عزير» عن عربى دشا راعى الكلية، ويعثوا إلى بنسحة منه ولقد فرحت بها كما لم أفرح شئ قط وصممتها إلى همدى وقستها . إن الوفاء هو أفضل صفات الإنسان وأعظم نعم هذه الحياة

وتسلم مودليار عبد الرحمن واسهم مبتسما وقال - ولابد أن نرور كلية لبات وحينئذ ترى بناتنا المسلمات ذكر عراسى.. افتتحت أول مدرسة لتعليم لبات فى الجزيرة بجهده هو والماشوات السبعة، ولقد رأى الناس سيدات مسلمات يصحن أزواجهن لبعضى ويعشن معهم فى الشدة والبلاء ورأين سادج عالية للثقافة والوطنية ولدين، وارتفعت الصبحة بنى لابد من نعلم البنات ليكن مثل المصريات

وأخذ عراسى يشرح بنى نعيم البنات واجب وأن الدين قد أوصى به . وقام عراسى وألف قصة طويلة عن المرأة والعظم والحب

والزواج وأعداها لغتيات الجزيرة وكان أول كتاب نفذ إلى نفوس النساء وفتح عيونهن على العالم الجديد المطلق دونهن .

وكان مودليار عند الرجوع يتحدث عن عرابي وكأنه بعض من ظهره عنه القرن الذي عاشه ورجع صعبا كما كان يوم رأى عرابي وعاش قريبا منه مبهورا به وكانت حياته تصيفان ووجهه شرق وملامحه تنقسم لذكرى نعل صباه.. ومضى يقول

- ولقد أصبح الناشوات المصريون نمادج الحياة لتسمى الجزيرة كلهم، وأصبحت حياة الأسر الكبيرة لدينا صورة من حياة أسر الناشوات، وليس مسلمو الجزيرة الطربوش تشبه بهم ولبست السيدات الطرحة بدلا من البردة الكثيفة.. وتعلم الناس شرب القهوة وتقديمها وسوا أيضا أعظم راحة وشارسي الشاي في العالم .

كان عرابي باشا رحمة الله عليه زعيما حقا، وإنني أذكر هذا ولا أنساه . دعى عرابي باشا يوما لحفلة ختان طفل صغير لرجل فقير وكان الباشا يلبي دعوة من يدعو ويذهب بنفس الإقبال سواء كانت الحفلة لعام صغير من عمال المزارع أو كانت للسير توماس ليمنون ملك الجزيرة غير المتزوج يومئذ وصديق عرابي باشا الحميم وقد رأى عرابي باشا الجلاق يقوم

بالمختار بطريقة ألت الطفل الصغير فلم يمكن إلا أن يقوم ويعلم
الحلاق درساً في الختان، مل وبروسا في الحلاقة واستعمال
أدواتها وتنظفة هذه الأدوات .

ووصلنا إلى ربوة عالية وأشار مودليار عبد الرحمن إلى بيت
بين الأشجار والأزهار على هذه الربوة وقل «هذا بيت عرابي
باشاء» .

وأصر مودليار عبد الرحمن على أن يثزل من على المحفة
وعلى أن يصعد على قدميه إلى الربوة وصاح وقد أشرقت كل
أساريره

«لقد كنت أصعد هذه الربوة مرات كل يوم وأريد أن أصعد
الآن ولابد أن أصعد»

وأحس بنا سكان المنزل لبرلو جميعها لاستقبالها والتحية
حكيم البلدة يتقدم إلينا شاب مهذب وقال إنه صاحب البيت وإنه
طبيب والتفت إلى مودليار عبد الرحمن وقل

ولقد احتفظنا كما احتفظ من سكنا قتلنا بهذه الرخامة التي
كتب عليها «عرايى هاوس» ولم نشأ أن نكتب اسمنا قط على
المنزل بل تركناه وسيظل دائماً اسمه .

ودخلنا إلى المنزل لنشرب فنجاناً من الشاي، ورأى العبيب

كتابين في مكتبته وصفهما بأنهما من أثمن ما يملك كان
أحدهما كتاب برودلي المحامي الذي دفع عن عرابي، والثاني
كتاب بلت صديق العرابيين وبصيرهم.. وقال لي الطبيب

لم أكن أعرف شيئا عن عرابي إلا من سمعني هي سكني هذا
البيت، فقد قال لي ضاحكا وهو يعبره إن هذا بيت له تاريخ
وهناك أرواح مقدسة تسكنه ولابد أن تعرف هذا.. وقترضني
هذين الكتابين، وخيما قرأتها أدركت شيئا غريبا كان يشغل
بالي دائما كلما مررت ببورسعيد هي صريقتي إلى أوروبا، وهو
كيف بنى هذا الشعب الذي يبدو ممرف الأهرام وكيف أقام
أجمل معابد ومسجد لعالم، وفهمت مصر من عرابي واستطيع
أن أقول لك إن عرابي هو أحسن نموذج شرقي أخرجته القرن
التاسع عشر للزعيم الثوري .

وأشار الطبيب إلى صورة كبيرة بالريت وقال هذه صورة
رسمتها زوجتي لعرابي وما نحن أولاء نضعها هنا في مدخل
بيتنا .

ولم يتركنا الطبيب إلا بعد أن هدني الصورة ،على الأثر
لكي نستطيع زوجتي أن تستمتع برسم صورة أخرى .
وتحرك الموكب وبغدا إلى قبة المدينة ووقف عند باب كبير

كتب عليه مستشفي وصيدلية .الشعب وقال مودليار عبد الرحمن

«كان يسكن هذا المنزل طيبة عصمت وكان يقول دائما «إلى وطني حيث أكون بأبعد الدس» وعاش هنا كواحد من تمام وتعم هو وأساؤه لعة البلاد وأجانبوها بن ورجع ابنه الأكبر إلى مصر وعاش حبيب يذكر مرائع طفولته وصباه وكتب كتاب عن سبلات مارال أحسن ما كتب عن هذه الجزيرة، رحمة لله على طلبة عصمت لقد كان يقول «إلى الرجل هو الذي يترك أثرا حينما كان» .

وهاموذا قد ترك أثرا إن سيمه در علاج وتحصيف الأم تمام كما كان يختار لو خير عليه رحمة الله»

وتحرك الركب. وسرنا حتى قاع واد أخضر جميل في أسفل قمة عالية رتفع عليها بيت أحاطت به أشجار الأكاسيا وبخيل حوز الهند، وحديقة واسعة من الورد وأشار مودليار عبد الرحمن إلى بيت وقال «ومن يسكن هذا البيت غير البارودي دشا؟ ومن بخناره سواء؟ لقد كنت البارودي دشا من طيبة فرسوس القصص . كنت الحيدة بالنسبة له حلما عظيما إن لم يوجد فلاد أن يصنعه بالسيف أو بالقلم» .

«لقد كنت في صباهي شاعرا فارسا ولهذا كنت أحب وأعجب
 بالبارودي دشا.. وكان كثيرون هنا لا يفهمونه خاصة حينما
 يقطع أسابيع طويلة هو وشيخ يكتب وحيه اسمه الشيخ عند
 الصمد.. ولقد كان لبارودي دشا يعترل الناس حبيب حتى
 زملاءه ويهيم في أرجاء الجزيرة الساحرة وعذباتها. ولكن شيئا
 آخر كان يسيطر على البارودي كان يذكر مصر في كل حين
 وهي كل لحظة وكانت مصر أممه في كل خطوة وفي كل لفته
 وكانت توبت الحنين إلى الوطن تشتد عليه كثير وكنت أذهب
 إليه فتجد في عينيهِ آثار نكاء أو حزن أليم عميق

وحينما سأله يقول لي «لحين إلى الأوصال» ثم يقول «سي
 لا أحشى الحياة ولا الموت ولكنني أخاف أن أموت هنا وألا أدفن
 في حفرة من أرض مصر» .
 وتحرك الركب .

ووصلت إلى أقصى المدينة ووقفت على باب سدائه حديقته
 عاء حوت كل الأشجار الجميلة وقال مودليار عبد الرحمن
 «لننه زيارتنا هنا كل شيء سوف ينتهي إلى هذا

هذه هي المقابر وتفايدنا في سيلان أن ندهن مواب في
 أجمل بقاع بلادنا وأن تحيطهم دائما بالأشجار والورود. وأن

نسقى قبورهم بعطر النرجس وأجمل النرجس عندنا هو ما يمو
بين المقابر سواء مقابر المسلمين أو الموزين» .

ودخلنا إلى المقبرة الشاسعة الفسيحة وتنادى مودليار عبد
الرحمن حارسا وكان عجورا كهلا يضارعه في سراع العمر
والزمن، ولا أدري ما الذى قاله له فقد أمسك بيدي وأخذ ينظر
إلى طويلا ويردد «عفيه رحمة الله» ويتمتم بلغة الجريرة وقال
مودليار «لقد قلت له إنك من بلاد فهمى باشا وجئت لتزور قبره
وهو يقول إن أحدا لم ير قبره منذ خمسين عاما وقد نمت
شجرة النرجس ولم يستطع أن يزرع غيرها» .

وأخذ الرجل يشد على يدي ويقول «ألا تفكرون فيه.. ألا
تفكرون في زيارته» ورفع يده وطلب أن يقرأ جميعا الفاتحة على
روحه .

وقرأنا الفاتحة وأخذت أتأمل قبر «محمود فهمى باشا» فى
مقبرة كاندى على بعد خمسة آلاف ميل من وطنه.. قبرا مغمورا
ليس حوله شجرة نرجس ولا يسقية أحد عطرا ولا يرويه أحد
منذ خمسين عاما .

وتصورت نهاية حياة محمود فهمى باشا الذى وضع
استراتيجية معركة القل الكبير.. وهو يشرف على تنفيذها وهو

ينهزم ضحية للخيانة لا للعجز، وحسوته وهو يشهد الهزيمة ثم وهو يقع في الأسر وينفى إلى هذا البلد السحيق حيث تدفن آخر بقاياها .

وقال موديليار عند الرحمن هذا لم يكن رجلا عاديا.. لقد كان إعصارا لا يهدأ ولا يكل. كان رأسه دائما مزدهجا بالضغط والمشاريع وكان لكل معضلة في رأسه حل.. وكانت الهندسة في رؤية عمارة الكون سواء في مصر أو في سيلان .

وحيثما أفتى المهندسون الإنجليز بأن الترم لا يستطيع أن يسير في سيلان وأن الكهرباء لا تتفق وطبيعة الأرض، قام محمود فهمي وفند اراهم وأصر ومشى الترام في سيلان

وحيثما طغت أمواج المحيط على شواطئ سيلان وقيل إن شيئا لا يستطيع أن يدفع أمواج المحيط أفتى محمود فهمي بأنه يستطيع أن يبني الجسور وأن يقع عائلة المحيط، وحيثما قيل إن سيلان لا تستطيع أن تبني حارات أو سدودا أفتى محمود فهمي بأن بناء الخزانات والسدود ممكن .

وأصبح محمود فهمي معروفا في سيلان كلها باسم «الإنجينير باشا» رجل المعجزات. وحتى اليوم لا يعرفه أحد إلا باسم «الإنجينير باشا» عليه رحمة الله. عليه رحمة الله .

«ومات فهمى باشا هنا فى الأرض التى أحبها وعمر فيها ما استطاع عمارته وأراد مسلمو الجزيرة أن يقيموا له قبرا كبيرا ولكنه كان قد أوصى بأن يدفن كما تدفن عامة الناس» .
وقال مودليار

- أنت ضيف لم نر قبر عند العال حمى فى كولومبو.. هذه قصة أخرى.. أصغر الناس على أن يقيموا له قبرا عالى شامخا فى خير بقعة من مقبرة كولومبو وأقدموه، ولكنهم احترموا وصية محمود فهمى وإن كان أبى قال لى منذ بضعة شهور إن مقبرة عند العال حمى فى كولومبو قد تهدمت وإن الطيور تعيش فى فبتها ولا أحد يرى النرجس المزروع حولها . إن الزم لا يحمل أحياء بهية الذكريات» .

وانتهب إلى بيت مودليار عند الرحمن لتناول العشاء وتكمل لى القصة. «إن أحدا لا ينسى يوم غادر الماشوت الجزيرة عشرين إلى ثلاثين بعد النفى الطويل .

لقد خرجت سيلان كلها أطفالا ونساء ورجالا، بوديين وهندوكيين ومسلمين . وفى ميناء كولومبو منذ الصباح بموج بالآلاف يقفون وينشدون ويسكون .

وحينما 'بحرت السفينة احتللت أصوات الموسيقى وأبشيد

الأطفال بحبيب الرجال والنساء وقصت سيلان كلها يوم حبيب
أليها .

كنت حياتهم هنا أسطورة وقد حلقوا وراحهم فبيري لاشي
من زمانهم وذكرى حنة دامة هي قلب وروح سيلان.

وفي الليل جلسبت تتنافش اب ومصيفتي بعد لعشاء وقالت

- ماذا بويت أن تفعل من أجل أجد دل ؟

- سناكتب عنهم.. ماذا أستطيع ان فعل غير هذا ؟

- وأنت ماذا بويت أن تفعل .

- ساسم رسالتهم هنا إن الطقة طوية عراسي عدي

بانديريكا؟

- من ؟

بانديريكا.. 'عرف هذا الاسم جيدا هذا هو رجل اشراخ

ورجل لمستقل هي سيلان، ساليون سيراياكا إيه رخر بحيف

ضليل ألهم حتى تماثيل بوز هي سيلان وهو الذي سيصنف

على خريطة العالم الثورية قريب

إن الاشتراكية هي النتيجة لطيفة. والجنة هنا هي سيلان

لايد وأن تكون اشتركية وسنصنعها مع داسرنك

نحن نصنع الحياة وأنت تكتب عنها

لقد كنت أريد أن كُتب مثلك ولكن بعد أن فكرت رأيت أن
أحاول أن أصنع الحياة مباشرة.. وسألتني دائما.. أليس كذلك؟
طبعاً سألتني.. أنت لا تعلمين أن الثورة التي أشعلها
الناشرون السبعة لا تزال مشتعلة عمداً .
وسترى اسم بلدي دائماً على خريطة العالم الثورية ولن
يزاح من عيها.. وسيموت كثيرون.. ومن يدري قد يذهبن بعضهم
مرة أخرى في سيلان... من يدري ¹⁸

◊ نساء في ثورة عرابي

المستر برويلى هو المحامى الإنجليزى الذى تولى الدفاع عن
عرايى بتكليف من صديقه المستر بلنت، قد ألف كتابا بعنوان
«كيف دافعت عن عرايى» ويحوى فصلا عن الدور الذى قامت به
المرأة المصرية فى ثورة عرايى .

ليس فى الشرق بلد يبدو فيه نفوذ المرأة و صما جليا كب
بيدو فى مصر، ولقد وجد عراسى فى الحريم وبع سيدات مصر
تأييدا للقضية الوطنية ومبادئ عراسى منذ اللحظة الأولى وقد
ظلن ثابتات على حماسهن وتأييدهن حتى الحصة الأخيرة أى
حينما تطفأ الخيط الأخير من الأمل .

وقد حرف الحماس حتى أمير ت الأسرة المالكة الحديوييه
حينما عدا أم نوفيق وزوجته وكى لا يظفین بتأييدهن القوى
لثورة والعرايى .

وحدث فى اليوم التالى لصرب الإسكندرية أن هت كل مشات
مصر وبنات الأسر الكبيرة لجمع التبرعات وبذلها، وجمع
تبرعات كثيرة وألقى فرقة لتحضير الصمدات ولوازم لحرى

لإرسالها للأطباء الذين كانوا يعملون في الخطوط الأمامية في
معركة كفر الدوار .

ولقد كان نذير النساء المحجبات في الحريم هو لصربة
لغاضية على حجج الدين كانوا ينكرون على حركة عراسي أنها
ثورة شعبية شاملة، وحدث بعد انتهت محاكمة عر بي صنعة
أيام وكنت قد بقيت في القاهرة في فندق شبرد أن جاني ذات
يوم رسول خاص في زيارة لخمسة وقال لي إن معه رسالة لي
من سيدة كبيرة المقام وسعني الرسالة ومعها مجموعة من
الهدايا الثمينة الفاخرة لي للمستتر ناسير مساعدتي في الدفاع
وقد كان نص الحساب

إلى المستتر بروالي المحامي .

بعد تحبائي واحترامي وشكري لشخصيت لشريف قبايبي
أنتهر هذه الفرصة لأعبر لك عن امتنان سماء وشعب مصر كله،
وبن والمصريين جميعا بشعر بالفرح وعرفان الجليل لما أدبت
من خدمات ولأنك دافعت عن قضيه العدالة والإنسانية، ونحن
المصريين والمصريين نسلمى ودعو الله أن يحقق لك السعادة
والتوفيق كما ندعو له أن يملأ بهذا البلد .

وابك نتعانت عن أداء هذا البلد الذين ثاروا من أجله واليس

لم يريدوا له سوى الخير قد جعلنا نمر ، بجلتر وبرى هيب
أحراراً يساعدوننا هي محبتنا وإيا لشكر المستر بلس شكريا
عيفا على جميعه نحوا وإن 'ماء' مغطه لتلج أن نمر ن عن شكرنا .
١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ .

وكن لإمضاء «أنجه» وهذ كل ما عرفته حب
وبعد بضعة ايام تلقيت ريرة مماثلة ولكن هذه المرة كانت
من فتاة جميلة متحمسة جدا وقالت لى بها تريد أن تتخرج لى
حقيقة مشاعر سماء مصر نحو الأحداث الأخيرة وكانت تتدفق
بحماس وفى تروى لى

لقد كانت كل فتاة وسيدة فى مصر تعطف سر ومن ول
لحظة على عرابى.. لآب 'دركنا' أنه لا يريد سوى خير مصر
ولقد اعتقدنا حيناً أن توفيق نفسه يؤيد عرابى ولهذا أحسنه،
ولكن حينما وحدث أنه يكيد له ويحول مصر كرهناه وكرهده
شدة، ومن يومها حاول توفيق أن يستعمل عطف سيدات وبنت
لأسر عن طريق أمه وزوجته بلجدوى.. بل ولقد كرهته الأميرات
وذمبت إحدى الأميرات الكبيرات إليه وقالت له فى موبحه
رأيها بصراحة فيه وفى تصرفه السياسى
وبعدها بقل رخل توفيق إلى الإسكندرية وسمعنا بعدئذ انه

احراز نهائيا للإسجير وبدأت الاجتماعات السياسية في الحريم
وصممت كل المجتمعات على عدم الاعتراف إلا بعراي كزعيم
شعبي بدافع عن البلاد، لقد كنا جميعا نرى في عراي زعيما
شعبيا سيتم على يديه الخلاص وكان حماسنا له لا يعرف
خبورا وكنا جميعا نكتب له حمائم إعجاب ونسب له بتفراغات
تهنئة وتشجيع أسماء مستعارة ولقد كتبت له إحداها مرة خطابا
محمم «إلى منقذ مصر» تعرض عليه لزوج لتقف إلى جانبه
وتؤيده ورد عليها عربي شاكرا وطلب منها أن تؤذي واحبها
الوطني في مكانها .

ولقد ساهمت كل سيدة وفئة في نفقات الحرب حسب
موادها وكما يجمع لتبرعات بانتظام. شتتس يجد طوال اليوم
في إعداد ما يلزم الجنود من أدوية وأعطية وضمدات، وطللنا
نعمل بحماس ونهت الشعور مع عراي وضد توفيق حتى كان
ذات يوم إذ جاء عراي إلى القاهرة وسرت إشاعة قوية بأنه قد
حاء معه نراس الخيال ويسلي والأميرال سيمور.. وطعي طينا
الفرح ولكن ما لبثا أن عرفنا الحقيقة المرة وأن العكس هو ما
حدث وأن عراي قد منى بهزيمة ساحقة واستولى علينا ذهول
وحزن أليم واستغرقنا في بكاء مستمر حتى بلغت حالتنا مبلغ

ليأس الاليم .

وحينما عاد توفيق منتصر مرهوا إلى القاهرة توقعوا أن يصب العذاب والغضب على مصيراب عرابي، وبالفعل ما إن وصل حتى أرسل إلى الفتاة التي كانت قد أرسلت خطابا إلى عرابي وأعلى أنه سيذيقها العذاب المر لولا أن نذحت أمها وأعلنت بجرأة أنها هي التي كتبت لخطاب ووقعت عليه بخط استها، وحينما خرجت الأم واستهت من عند توفيق المقتات لالاعا الذي أبغ الخديو توفيق بقصة لخطاب ووشى بهما إليه فأمسكت الأم بكرسي وصوبته على رأسه وانهالت عليه ضرب وأخذت تجرى وراءه في أرجاء لسراي والدم يمزق منه تريد أن تقتك به نهثيا ..

وأمر توفيق بجمع كل بعد مدله حواسيسه عليها وكان أكثرما يرتجف من الخوف وبهتسا.. وكان توفيق بجس وإلى جواره أمه وما إن اكتمل عددا حتى انهالت عينا أمه بأقبر وأقذع السباب وأعلنت لنا هي تشف أن مطلنا عرابي سيسلمه الإنجليز إلى الخديوى لكي يعدم ببطء على الحازوق، وفرات عيب أمه قائمة بأسماء رعيما حركتت وفات إبه قد تقرر بعامهم وسري فيب لرعب وظللنا حانفت بضعة أيام حتى تحققت أنه لا

توفيق ولا أمه يستطيعان أن يحرکا أصعب بغير مواجهة الإنجليز
”سيادهما .

وحينما عرف أن حياة عراسي لن تمس وأنه سيبقى فقط
لمست أم توفيق الحد ، وسرى الوجوم والحزن في السراي
وأخذنا نحن بنورنا نتشفي فيهم .

واحتتمت الفتاة الجميلة المتحمسة حديثها معي قذلة
”أحب أن أقرر لك كي تعد لعالم كله أنه مادام توفيق يحكم
مصر هن يكون هناك سلام لا لكم ولا لنا ولا لمصر كلها .

ولقد كان يمكن لتوفيق أن يترعم الوطنيين وأن يكتسب ثقة
الشعب لمصرى ولكنه طرح هذه الفرصة وأخذ يداور
حتى أصبح عند بريطانيا .. ولقد أصبح توفيق أكره رجل على
الشعب وليس له مستقبل وسيدكر اسمه في التاريخ دائما باسم
الرجل الذي جاء بالإنجليز إلى مصر .

ولقد قابلت توفيق بعدئذ وفي حديث طويل له قال لي إنه كان
يستطيع أن يعيش في سعادة وفي سلام لولا شينان هما أشد
ما في مصر خطرا عليه وهما أقلام الصحفيين والسنة
المبيدات .

◈ الزغوليات

إن المصريين مثل رمال الصحراء قد تستطيع أن تسيروا عليهم، ولكن يوماً ما يهبون كهواصف الرمال ويتلفونك ...

في عام ١٩٢٢ جاءت إلى مصر الصحيفة الأمريكية جريس تومسون سيتون لتري سماء مصر، وكنت عندما صدر في ذلك الحين ولم يقرأه أحد في مصر سحبت منه صفحة من كتاب سماء مصر أو الزغوليات كما سمتهن .

* * *

قبل أن أبدأ من الصعب جداً أن استطع رؤيتها إن لم يكن من المستحيل، وكان من العيث طبعاً أن أحاول الاستعانة بأحد من معارفى الإنجليز أو الأمريكيين، ولم أجد سوى أن أكتب لها من امرأة إلى امرأة ومكافحة في سيرة قضية المرأة الكبرى في بلادى إلى مكافحة في سيرة قضية الحرية في بلادها، ولم أنس حد عسى الرسالة قدمنت نفسي وسلمتها لبوب «بيت لامة»

وهي اليوم الثالث جاء الرد مهذباً في لغة نصيرية مدبحة

يحدد لي موعداً لمقابلتها

ونهبته. ولم أكد ألقى نظره على ما حولى حتى دهشت، أن
«لشرفيات كم بصورهن خيالنا الغرس المريض قد انقرض،
والحوريات المضطجعات فى اسنرخاء» يعرض فتنهن على أرائكن
ماعمة من الحرير وحولهن لحوارى يعرفن العود والطنبور لم تعد
توجد إلا فى كتب الأساطير .

واستقبلتنى خادم أنيقة قادتنى سيدنها حيث كانت تجلس
وحولها عدد كبير من «أركان جريها» و «لمعجات
ووجدت «مدام رطلول» سيدة متوسطة الطول ذات شعر تفلله
المشيد فى وقار وجمال وعينين عسيتين نقاذتين وأف دقيق
وشفتين رقيقتين وطرار متقف مهذب من الجمال
ومن الوهلة الأولى أحسست أننى أمام سيدة قوية الشخصية
ذات كبرياء . وذات رقة ووداعة أيضا وكان صوتها دائما هادئا
لا يعز ولا يفعل، وكأنه يعز عن روح انكشف لها الحجاب ورأت
الحقيقة.. وصممت على أن تتبعها حيثما تقودها

ولقد اعتقل زوجها «زطلول باشا» للمرة الثانية فى ٢٢
ديسمبر سنة ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف فى عربته وشهدت
صفية هاتم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت.
وحبرت بين أن تصحب زوجها أو أن تبقى، وكان عليها أن

محسم هذا السؤال لخطير.. ولكنها بعد تفكير عميق قررت أن تبقى وأن تتم الرسالة التي تركها زوجها، لأنه إذا كانت حاجة زوجها إليها شديدة فإن حاجة مصر أشد .

وكما قالت لي إن سعدا سجين في سيشل ولكنني هت روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه .

ولقد كان ردها على دار المندوب السامي قاسيا تاريخيا فقد أمسكت بالتليفون وقالت للمتحدث حينما أخبرها أنها تستطيع اصطحاب زوجها

«أخبر سعادة المندوب السامي أنني سأنزل في القاهرة وسأعمل كل ما في وسعي لأتم عمل زوجي، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد ولكنكم لا تستطيعون أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش، وهي بنته، وأب ساكون سعد حتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب لن يسمح بغيبه ولن يمكنكم من إبعده طويلا، وحتى لو مات سعد فسيأتي كثيرون غيره وسيقدمون الصفوف وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر .

وأعدت صفية هانم واللجنة منشورا وربع في كل أنحاء اسلاد بعنوان «نداء حرم الرئيس» .

قالت فيه «لئن كان سعد شيخا مثقو أن هذا السعي لا يهد من عزيمته إلا شيء واحد هو أن يعلم يوما أنكم اعتراكم اضعف ولو للحظة واحدة» .

وبدأت في عيبة رعب الولد الكبار في لسفي ورعاء لصف لثاني في السحون صفحة كفاح محبدة لسيدات مصر بزعاة صفية هانم زغول

وقد بدأ احتجاجهن بأخذ شكله العملي بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية، وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة وجمعية محمد علي الأرستقراطيات الكفاح من أجل استقلال حقيقي للبلاد .

وقالت لي مدام زغول: إنهن لم يفرن ملابسهن ولم يعرضن اليوم طوال الأسبوع الماضي وقد انتشرن في شوارع القاهرة وأثرن في البدء سخرية لبعض، ولكن لم يمض أسبوع حتى كان التجار يستجيبون بهن وينغدون كل طلبانهن، ولقد نظم لجانا في المدن وهي القرى وعقدن اجتماع في القاهرة شهدت ألقا سيدة نظم فيه مقاطعة البريطانيين والبضائع البريطانية حتى ضج البريطانيون.. وأفلس عدد كبير من منازحهم .

* * *

وبدأت أتردد على بيت الأمة وأنعرف بالمصريات الجدد وكانت صفية هانم تقدمهن لى وتحديث عنهن، لآهن كن ينين الحديث عما يقعله وتحمر وجههن حجلا إذا أشاء هن أحد وعرفت مدام بركات وكانت صفية هانم تسميها «أركان الحرب».. لأنها كما قالت لى «دات مقدرة حارقة على العن الشاق المتواصل وهى تسكب كل روحه وشاطفه وحمسه فى لكناح لقضيتنا» .

وكانت مدام بركات شابة ذات عيني برفتيين لامعيتين ووجه مستدير وبشرة ناعمة سمراء وخدين نديين، وهبيما قابلتها لأول مرة كانت قديمة منعقة من الحارج فقد رأأت مصريين يشتريان «كرافات» من محل «جليري فانديقت إلبهم وعفتها حتى تركا المصاعة وأسرعها بالهرب خجلا.. وحيم استمعت إليها وهى تروى القصة أحسست أن روح حن يارك مودة متفجرة فى المصرية الجديدة .

ولقد التفتت إلى صفية هانم وقالت «إسا لم بعد يشتري شيئا مطلقا إلا ماهو مصرى وحتى هذه الفصائر نصنعها فى بيوتنا هنا لأننا لا نريد التعامل معهم» .

ودعت مدام لورى ودام يوسف أولا شقيقة صفية هانم

وهما سيدتان ممثلتان كانتا تساعدان خالتهما كثير في
كفاحها وقد قبلتاها في حذيتها ثم في جبهتها وقدمت إليها مدام
الوزى باقة ورد.. وقالت لها: «هذا من حبيبنا أرسله أنى إليك»
وضحكت مدام زطول والتفتت إلى قائلة
«انظري كم تقدمت منذ عهد الحجاب.. إن رجلا يقدم لى
أزهارا» .

ونتهزت الفرصة وسألته
«كيف تتصورين مستقبل المرأة المصرية»
وقالت لى رائع إننى نفسى لا أكاد أصدق لتقدم والتطور
الذى حدث ونحن نتقدم إلى الأمام بخطوات واسعة. روجى رجل
متحرر وهو يؤيد حقوق ومطالب المرأة... والحجاب هذا ليس من
ديننا فى شيء ولابد من أن نطرحه ونتححر منه نهائيا ربما فى
بضع سنوات وربما فى بضعة أشهر .

وسألته وكيف ترى مستقبل مصر ؟
فطالت سنكافح حتى ننال مصر حريتها ونسسير فى الطريق
حتى النهاية

فانتهت بالفرنسية وبتصميم وعزم أكيد. ثم التفتت إلى مدام
واصف بطرس غالى تلك النظرة الحنون التى تجعل الجميع

يعتدن صافية هانم .

* * *

ويجتمع صالون صافية هانم كل السامح من مساء مصر من كل الطبقات.. من الأميرات حتى الفلاحات السيطات
وفن يجلسن معا بلا تفرقة يجتسبن القهوة أو الشاي بغير
كلفة أو تفرقة.. ويذاقن ويبحثن معا وليس هناك مكان يمكن أن
يرى فيه الإنسان حبوبة مصر وثورة مصر والمرأة المصرية
الجديدة مثل هذا الصالون .

ولقد ذهبت يوما فوجدت سيدة ريفية تجلس على الأرض
مترعة والجميع يحيطونها بعطف واحترام، وكانت ترتدي ملابس
الريفيات وتضع مجموعة مذهلة من الحلى الذهبية على صدرها
وفي ذراعيها وحتى في قدميها .

ولم تكن غريبة وسط الجو الأنيق المهدب المثقف لتحمس
الذي يحيط بها والذي كان يكف عن الحديث بالفرنسية لكي
يتحدث إليها، وكان اسمها الست جبة وقد جاءت إلى بيت
الامة تحمل ملعا كبيرا من المال لتتبرع به لصافية هانم ولثورة،
وكانت الست جبة تصحب معها سيدة أخرى ريفية لا تقل
حمولتها من الذهب عنها، ولكنها كانت أكثر رشاقة وأناقة منها

وقد أجلسنها صغيفة هانم إلى جوارها.. وحلمت تحسنى القوة
فى رشاقة لاتقل عن رشاقة من حولها، وأخذت أيضا تسألهن
وتستفسر منهن عن أشياء كثيرة وهن يجبن بترحاب عن كل ما
تريد .

وسألت جارسى.. فأجابتنى بانجبيرية طفلة أدهشتنى إن
الجميع من نساء المدينة إلى نساء الريف يؤمن بأن سعد باشا
هو الرعيم الوطنى لمخلص الحقيقى للملاد ويجب التضحية من
أخيه، والريف يؤمن به ويعتقد أنه بغير سعد باشا لن يكون هناك
رخاء .

وأعجبت بحماس ويلاعة محدثتى الشابة وعرفت أنها شابة
من الإسكندرية وسطرق الحديث إلى البريطانيين. فقالت
إنهم أغبياء وهم لا يعرفون شيئا عن قلمنا يعرفون حيتنا
لا اجتماعية، ونحن لا نختلط بهم إطلاق وهم مغرورون ومتكلفون
حتى بينهم وبين أنفسهم.. ويدهشك أن تعلمى أنه حتى فيما
بينهم وبين أنفسهم يسودهم لنفاق الاجتماعى والتكلف. وروجة
الموظف البريطانى دى الستين حينها شهريا لا تختلط بزوجة
الموظف دى الأربعين حينها. ولقد سافرت إلى لندن عدة مرات
وعرفت حقيقة هؤلاء الناس .

واشتركت معها في الحديث عبيدة مرقص حيا ولم أستطع أن
أستشف أن وراء هذه الغطاء الضاحكة المتفائلة قبا مثقلا لأن
عملها وخطيبها متفبان مع سعد باشا، وعرفتني عبيدة بحب
مارى وهما كريمتا مرقص حيا وعملهما سيور بك حيا، أحد
أقطاب الحركة الوطنية الذي تعرفت ناسته كامل وروحته

هؤلاء سيدات قبطيات - أى مسيحيات مصريات - وهن
جميعا مجاهدات جهاد لا يهدأ فى سبيل الحركة الوطنية
وأیضا فى سبيل الحركة. وهن يتكلمن الإنجليزية بطلاقة وقد
حدثتني عن الحركة الوطنية وكيف "هن جرفت حتى الأحاسات
للتزوجات من مصريين .

ولم أصدق حتى التقيت بلوير ماحوريلى زوجة و صف
طرس غالى. وهى سيدة فرنسية نحيفة رقيقة ولكن ذات روح
ثورية جياشة كالفراسة المشتعلة .

ولقد كانت لوير ماحوريلى متحمسة فى الدفاع عن الرجل
المصري وددت لى الحرافات الشائعة بأن كل هم الرجل فى
مصر إذا ما أثرى هو أن يريد عدد زوجته

ولكن أغرب من صادقت كانت هيلدا فانوس، مواطنة أمريكية
التقيت بها معرفة فى العمل وإعداد المنشورات و لرسائل فى بيت لامة

وهيئة من ستيغور وقد التفت وهي في الخامسة عشرة
بالدكتور رياض فانوس الذي كان يدرس في جامعة جون
هوبكنز وأحبته وتزوجته رغم معارضة أسرته كلها .

وقد وقعت هيلدا بصوتها لجمهوري تقول لي أخبرهم في
أمريكا عن وعن هؤلاء النساء الرائعات اللاتي يرس إعادة مجد
وحضارة بلادهن ورسى لسعيدة لآسي ألقيت بمصيري معهن،
ورسى لفخورة بنسى أسنطيم أن أعمل معهن وأكفح بيدهن
لتحقيق آمالهن وأخبريهن أيضا عن الرجال الأنطال الرائعين
الذين يذاضلون ويصحون لهدف واحد هو تحرير بلادهم من
الجهل ومن الاستعمار، وصححي لفكرة السائدة في أمريكا
لتي تقول إن المصريين برايرة فطريون لآسي أحيانا أخلج من
بلادى وموقفها نحو مصر .

ولقد كان كل هؤلاء يحطن بصفية هام وكانت تبدو بيدهن
رعيمة حقيقية تحمل هبة الزعامة العظمى وتستطيع أن تلهمهن
وأن تقودهن وأن تكون لهن الأم والرائدة والقائدة وأن تجعل
مضحياتهن لكبيرة المضطرة إلى المال والجهد تبدو سهلة محبة
أمام مدعهن الأكبر وهو تحرير مصر.. لا من بريطانيا ولكن من
كل القبود .

ولم تكن صافية هامة في الحقيقة سوى أم لكل المصريين،
ولهذا كانت لزعيمة الروحانية للنساء ورجال أيضا هي غيبة
زوجها .

وكانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات في يد سيدة مصر
الثانية العظيمة مدام هدى شعراوي .

وهي سيدة هادئة رصينة، وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة.
وهي تحمل هي وجهها وشخصيتها تلك لقوة الصامدة المتدفقة
التي تحسها أمام النيل نهر مصر اعظيم.. ووراء مظهرها
المهذب الشامخ يحس الإنسان أيضا أن هناك عقلا مرتقا وإرادة
صلبة.. ولا أريد أن أتحدث عن جمالها لأنية صورة لها لا
تعطى فكرة عن أي جمال ساحر تضد تتمتع به وهي في سن
الأربعين .

ولقد جعلها جمالها وشخصيتها ووظيفتها وموهبتها وقدرتها
على العمل الشاق رئيسة لجنة سيدات ورئيسة شرف لمرأة
العديدة .

ولقد هلفت بالدوائر السياسية في إنجلترا وأمريكا ، ولكني
وجدت من الذكاء والحماس والوطنية والجمال والأناقة في مصر
وفي بيت الأمة أكثر مما وجدت في أي مكان آخر من سيدات

ومعنيات ومثقلات وفلاحت مصر الحديثة .

ولقد كنت أعتقد دائما أنه حينما تستقر المرأة للعمل مدفوعة
بعاطفة وطنية أو بإلهام عميق أو حتى مجرد مقتنعة ببرنامج
سياسي فإنها تغدو عبدة حديدية الإرادة إلى حد لا يتصوره ولا
يستطيعه الرجال .

ولم ألس هذا مثلما لمسته بين « الزعوليات »
ولقد وجدت كلا منهن شعلة روحية ملتهبة من الثورة
والتصميم على الكفاح . وهذا أكد لي أن المرأة قادرة على
النضجيات العظمى وعلى الحياة وعلى الغناء من أجل فكرة .

ولكن كما قالت لي صفيّة هانم
« إن المصريين مثل رمال الصحراء قد تستطيعين أن تسبرى
عليهم.. ولكن يوما ما يهربون كعواصف الرمال ويستلعونك » .

◦ لماذا لا يكون السد بطلاً ؟

كانت أسير في مكعب طويل حاشد من الرسميين المصريين
والروس لزيارة مواقع السد في العيد الثاني لبدء العمل فيه.
قالوا إنه مستعمرة الفنين الروس وعائلاتهم .

وبرر من بين الروار الروس عملاق طويل كضاحي لوجيت في
فصص تولستوى، وتداهعت إليه النساء والأطفال وأحاطوا به
مهلين .

ونحى العملاق عن المكعب ووقف بين النساء والأطفال
يداعهم ويداعونه ويقهقهون جميعاً بصحیح وصخب يختلف عن
جو الوقار الذي كان يسود لموكب .

وبرزت له امرأة روسية في مثل ضخمته واستغرقت معه في
جدل حاد بدا وكأنه شجار ولكنه انتهى بصحكات عالية
مجلجلة.

ووقفت إلى جوارى «بيلاييف» مراسر براعدا يستمع
ويضحك هو الآخر وقال

هل تعرف ماذا يقولون له ؟

- طبعاً لا ..

- المرأة تقول له.. طريق السعادة ليس خريطة ولكن مادامت هناك سدود فهناك سعادة. أليس كذلك ؟

- ولكن لماذا كانت تبدو وكأنها تمسك بخناقها ؟

- إنها تقول له كيف يمكن لمهندسة مثلى «اشتركت فى بناء كل السدود السابقة أن تبقى فى البيت وتطبخ وتكنس وتنتظر زوجها.. وكانت تقترح عليه فى المرة القادمة أن يهديها ثوباً وحجاباً مثل نساء أسوان لثقف به .

وقال لى بيلاييف أيضاً بعدما انقضت الحلقة وهرع الآخر ليلحق بالوكب .

- هذا «كوميزين» هل تعرفه؟ إنه شيء عجيب.. رحمة مواهب.. وطريق السعادة لدى يتحدثون عنه هذا هو اسم قصة كتبها عن السدود.. وحدث فيها كل هؤلاء الناس الذين تراهم.. هذه المرأة بطلنة من بطلات القصة.. وهؤلاء الذين تراهم هنا «شلة» معروفة فى روسيا وهم يعرفون بعضهم بعضاً كائسرة.. وقد اشتركوا فى بناء خزانات وسدود ومحطات فى كل أرجاء روسيا وأصبحوا بعد كتاب كوميزين معروفين لكل فرد فيها ومن أشهر الشخصيات الواقعية فى الأدب الروسى ..

- ألم يترجم هذا الكتاب ؟

- لم يترجم للأسف . ولكن كومزين يكتب قصة أخرى عن
السد العالي.. لقد رأيت عنده ذات مرة أرشيفا كبيرا يجمعه عن
الأحداث والشخصيات هنا، وهو لا يريد أن يحضر إلى مصر
ويتركها بعير أن تلهمه عملا أدبي كبيرا .

وترقبت فرصة وسط الرحام والغبار وبين صحيج الآلات
والجرارات لكي أتعرف وتحدث إليه.. وحينما مسحت وعرضا
بيلاييف قلت له

- كنا نتحدث عن كتابك طريق السعادة .

وقهقه ضاحكا وأشار إلى المشي الذي كنا نقف فيه
هذا هو طريق السعادة.. هُتند تسير فيه .

وقلت له ما الذي تفضل أكثر.. الهندسة أم الأدب ؟

وقهقه الأثيم.. يا عزيزي إن لي روحتين، والانتشار
ممتع.. اسمع بعد أن صدر طريق السعادة ذهني مجموعة
من القراء لكي ينقشوس في الكتاب . كما نفس في روسيا
ووقف أحدهم وقال لي يا كومزين.. أين النزل ؟

وقلت له « لبطل هو مجموع الناس يا رفيق »

ووقف قارئ آخر وقال « البطل هو السد نفسه . هذه قصة

طريقة. النطل فيها ليس كأننا حياء .

وقلت لهذا الرجل «لو بنيت سد، أو عشت مع سد لأتركك أنه

كائن حتى لا يقل حياة عنك يا رفيق» .

وأشار كومزين إلى سد أسوان القريب وقال

انظر إلى هذا.. كائن صامت مهيب ينقث الحياة في كل

شيء حوله.. مل وإلى آلاف الأميال أبعد منه.. يحول الصحارى

الجرداء أو مساحات الشجج إلى مدن ومصانع وحقول تعج

بالحياة والسعادة.. أليس هذا كائننا حي؟ وأية حياة ؟

و ستطرد كومزين

- كان أنكى تلك المجموعة امرأة قاست وطبعت قبلة على

خدى وقالت هذا أحد الكتب القليلة التي لم أنم قيل أن أفرغ من

قرتها، لقد جعلت من لهندسة أما ومن لأب هندسة دقيقة ..

وقال بيلاييف صاحكا

- كم كان عمرها ؟

وقهقه كومرين واستدار ليذهب.. وقلت له

- عرفت أنك تكتب قصة عن السد العالي

- طبعاً.. ومن الذى يرى مصر ولا يحاول أن يكتب قصة

ولكن لابد أن أذهب الآن.. إنهم ينادوننى.. طبعاً سنلتقى كثيراً

ما بعث معنا .

وذاب كوهزيين وسد الموكب الكبير .

والتقينا مرة أخرى في وقفة من وقفت الزوار أمام إحدى

المشآت وأخذني من يدي.. خرج الموكب وقال

- تسألني عن كتاسي عن السد العالي؟ أما أستعرب حد

كيف لا تكتنون شبت يستحق عن السد لعالي؟ اسمع. مرة بعد

جتماع طويل حافل التفت الوزير إلى وقد لي

- هل انتهت مطالبك التي لا تنتهى ؟

وضحكت.. وسنح بخاطري أن أقول له هك واحد فقط،

كتيبة كاملة من الأدباء والكتاب والفنانين يعيشون يوما بيوم

ويشتركون معنا في رفع الأحجار وفي حفر الأنفاق . لابد أن

تسجلوا ولادة السد والحياة التي تزدهر كل يوم حول السد،

إسى لا أومن كثيرا بهؤلاء الصحفيين الذين باتوا يوما أو يومين

ثم يكتبون عن السد.. إسى أريد كتابا حقيقيين يصورون الحياة

الزائخة الجديدة هنا، إن عندت هنا أحسن وربما أيضا أسوأ

ما في مصر، وربما أيضا أسوأ ما في المصريين هنا مادة

حديثة كاملة كل عناصر الدراما والمحنة وسط العار والضجيج

وحر يوليو .

وقلت له

فضت أن تقوم بالمهمة بنفسك .

وبدا كأن لم يسمع الرد واستطرد وهو يفكر

- اسمع.. هي أول أيامي في مصر، سألت مهندسا مصرية

من هو الكاتب الذي يمثل مصر؟، فلم يفهم ما أريد وقلت له من

هو الكاتب الذي أقرؤه هائهم روح الشعب؟ ولم يفهم فقلت له

مثل جوركي في روسيا أو ديكنز في بريطانيا أو طغور في

الهند مثلا ؟

وتعجبت.. لم يكن قد سمع عن أحد منهم ولم يكن حتى قد

قرأ شيئا من أي بلاد ..

وقلت في نفسي هذا المهندس لا يمكن أن يصلح في بدء

هذا السد.. أنا عندي قاعدة ذهبية ، أنت لا تستطيع أن تبني

سدا لأناس قبل أن تحبهم ولكني تحبهم لابد أن تفهمهم وتنفذ

إلى روحهم .

- أين نحن ؟

جذسي مرة أخرى من يدي وقال

- تعال سأريك شيئا .

وسرنا معا حتى فرقة لصهر الحديد وكات ورشة فديمة

مدانية في لانها وعمالها و ماري أحد عمالها وسلم عليه حراره
وقال بالعربية

- اريك مسعود .

ورد مسعود بكثرياء

- عاى . وازيت أنت ياكومرين؟ واري عباك ؟

وقال لي كومرين «مسعود هذا في حوالى لستعين من
عمره، وهو الذى أوحى لي بالقصة عن السد العالى لقد اشرب
في هذه معظم السمود والحرايات على نهر النيل في مصر
والسودان، وأنا لو كنت أعرف العربية وأحبها كثيرا أنحسر
لأننى لا أعرفها . كنت قصيت أوقاتا صويلة مع حسن هذا وكنت
قصة كاملة عنه.. قصة العرق لدى سال وتصبب من ملاين
المصريين وجيلا بعد جيل من أهل غيرهم وليستمع به غيرهم»

لقد قال مسعود هذا يوما لأحد القيين الروس الذين يتكلمون

العربية

«يا إيفرن السد العالى أعاد لي شبابى وعسى الآن صحة
تكسر الحديد . ولا أطلب من الله إلا أن يجعل يوم موتى بعد
تمام السد.. أراه وأموت» .

«مسعود هذا كتاب يمكن ان يفهم منه مصر كلها وسببها

له قصتي عن السد العالي .

ونظر كومزين حوله فوجد أننا تخلعنا بعيدا عن الموكب وأنه
نسى نفسه في الحديث فقال

لاند أن أسرع الآن لألحق بهم . إن أسنة الرؤساء الكبار
هي حولة تفتيشية كثيرة وسخيفة لابد أن ألقاها في صدري
وسألكي

- أين تقيم معنا هي الفندق .. أي غرفة إذن ستصل بك..
هذا المساء .

ربما يمكن أن نحصل منك على حديث كامل عن السد وعن
الأنب وعن بذة السدود .
وقل

- حديث صحفي وأسئلة وأجوبة .. ومشاكل بعدئذ لا . مجلس
وينحدث حول هنجان شاي ثم تفعل بالكلام ما تشاء تحت
مستوليتك .. ستصل بك على أية حال .

وأسرع كومزين أيلحق بالموكب

وفي صباح اليوم التالي وفي ساعة مبكرة جدا سمعت قرعا
على باب الغرفة وقمت متثاقلا لأفتح وإذا بي وجها لوجه مع
كومزين وبصحفته رجل آخر شاب طويل أسمر أنيق ماديبي

قائلا في لغة عربية فصيحة وبلهجة مصرية سليمة : هياح
الخير يا أستاذ، اسعير لإرعاجك ولكن حاولنا لاتصال من
تليفونك فلم نجد في غرفتك تليفون. وقلنا بعاجتك لنشرب الشاي
معاً.. إن وقت لسيد كومزين كما تعرف مشغول جدا ولكنه
حريص على الحديث إليك .

وقهقه كومزين وقال

- قنا الصحفيون رانب يفتقون الدس.. فماد لايفلفهم

لناس أحيانا .

وانتقت إلى زميه وقال

لسيد عبد الحميدوف مهندس من زملائنا وبجيد اللغة

العربية.. أليس كذلك ؟

- يجيد.. كلمة متواضعة إنه بتكلمها مثلي

وهو أيضا متعمق في الأدب العربي ويترجم محتررات

منه.

السيد عبد الحميدوف مترجم مهندس

وأجاب الشاب لانيق

- أنا مهندس يا سيدي ولكني أحببت اللغة العربية والأدب

لعربي خاصة كتاب القصة وترجمت بعض القصص .

قرأت لمن ؟

- لكثيرين . توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حلفي
وعيرهم.. وأنا أنترجم مختارات منهم إلى اللغة الأذربيجانية وإلى
اللغة الروسية. أما أصلا من أذربيجان
وإن تعمت لغة العربية ؟

- بدأت هي موسكو لكن أحدثها هنا . لي هنا عامان ونصف.
ولكن الثقافة العربية والكتب المصرية مشهورون عندها هي
أذربيجان مثل شهرتهم هنا .. طه حسين ومحمود تيمور يكران
بكونان معروفين عندها كما هم في مصر . وقد نستغرب إذا
عرفت أن من أشهر لغنيات في أذربيجان.. السيدة ام كلثوم .
وقد كومزين

حتى نقرأ من الحديث عن أذربيجان سادها لاطب
الإفطار. بقطر هنا . هي هذه الشرفة .

وعاد بعد قليل لنستأنف الحديث

قال كومزين

عبد الحميدوف كان معي في أول زيارة لي لموقع أول يوم
حب فيه إلى هنا . في أسوان.. قبل أن يوجد شيء من كل هذا
الذي رأيته .

وقال عبد الحميدوف

كانت تجربة لا تنسى .

وقال كومزين

لقد جئنا جميعاً إلى مصر فرحين متحمسين

تاريخ مصر وترث مصر وحضارتها القديمة وثورتها الصاعدة

كلها كانت حلماً .

وأن أذكر قص أن أحضر بقيام، ذهبت لأتأهب خروشوف.

وقال لي «يكومزين هذا المشروع يعني شخصي به يمثل كل

ما نمثل نحن في حياة هذا العصر» .

وأشعل هذا حماسي.. ولكن حينما وصلنا إلى هنا، وحينما

وقفت على موقع السد أحسست بحور في العريضة وتشاؤم

شديد.. لقد رأيت مصر طوال الرحلة في القطار شريط ضيقاً

أخضر يردح فيه البشر ويتضورون جوعاً.. ذكرتني بجحيم

دنتي.. ويومها قال لي حميدوف لقد جئنا إلى وادي لاام

والآخر نيكومزين.. ووافقت صيحا من كل غليي .

«بالنسبة لي كان من الصعب أن أصدق أن هذا الشعب

المصعصع المهلهل هو الذي أقام كل هذه الحاضرة» كن من

الصعب أن أنصور أن هذه لوحوه الصغر الهزيلة وهذه

لأجسام النحيفة لندكة هي مصر .. كان الزيف المصري صدمة
كثيرة لي ولحميدوف أيضا.. أليس كذلك ؟
وقال حميدوف

بالاشت.. أب قلت لك الاستعمار ي كومرين.. لاستعمار
ولكن حينما ترى النساء على الطبيعة يجدها شبت مختلف وأشد
قطاعة من كل ما تصورت .

مرة نشرت مجلة «الكروكدين» عمدا وهي مجلة فكاهية مقالا
ساخرا عن بريطانيا قالت لم يعرف التبريح أقبية مثل هذه..
فعلت بكثيرة مثل هذه . كل هذا" والإشارة هنا إلى كلمة
تشرشل المشهورة خلال الحرب
وقال كومرين

وحينما وصنا إلى أسون.. إلى مكان السد شعرت بوحشة
وانقباض لا أنساها أبدا.. أرض خرداء قاحلة وناس يهيم
عليهم حمل وكسل وعدم اكتراث بلا حدود .

يوهم كس معنا ثالث هو إيفرن. مال على قانلا «يبنو لنا
سببي معجرة حقا» ثم مال على حميدوف وقال له «هل يمكن
أن تقع في حب هذا المكان؟» وكان يرمى شيئا إلى قاعدتي
الذهبية في بناء السدود، لكي تبلى سدا يحب طبع أن تكون

مهندس ولكن هد أسهل الأشياء وأبسطها ، وأهم منها أن تعلم كيف تحب الأرض التي ستبنى عليها والناس الذين ستنشئ من أجلهم . وطبعاً أن تحب السد نفسه .

وكنيت أعتقد أنني قد اخترعت هذه القاعدة أو على الأقل قد حدثتها ولكن ذات يوم ذهبت إلى متحف الزى هنا ، وهو متحف الزى والأعمال الهندسية منذ مصر القديمة حتى الآن وصنقى إذا قلت لك إن هذه القاعدة لاس كانت مطبقة منذ قدماء المصريين.. لقد أمسكت بأول مخطط فى هذا المتحف وأحسست أنني فى مدرسة أتعلم أشياء جديدة . ونحن صممت للصواريخ والأقمار . ولكن أحسست أنى أكتشف جديدا فى ذلك الفن السحري فن ترويض الأنهار . إن علاقة المصريين بالنهر علاقة حب.. وليست مجرد علاقة حبز . محب متيم يريد أن يعرف كل شيء عن حبيبته . قوتها . صغفها ونزواتها . إن كل نهر كبير فى العالم له شخصيته وراثيته اليسر عبر الفولجا . عبر الراين ولم أن شعباً يفهم نهره ويحب نهره مثل المصريين .

أحياناً أسمع حسن ركنى يتحدث عن النيل هاتصور أنه يتحدث عن جده العجوز الطيب . وأحياناً أراه واقف بتأمله . فأحس أنهما يتكلمان معاً مع بعضهما البعض وذات يوم قب

له ،بنى أصعب مشروع قصة عنه بعنوان «العجوز والبحر» فأخذ
يضحك ويقول لن تفهم السر

على أية حال قبلنا التحدي وقلت لحميدوف وإيفان «لا بد
أن نقبل التحدي.. وبدأ من الصفر»
وهأنذا ترى السد .

وأُطرف من هذا.. هأنذا ترى حميدوف مفتوحاً نائب مصر
وثقافة مصر وإيفان لا بد أن تراه هو الآخر. لقد حاخى ذات
يوم يقول «لقد عرفت يكومزين كيف بنى هؤلاء الناس كل هذه
لحضارة، وأنركت لما يريدون أن يصعدوا إلى مستوى
ماضيهم، لن تفهم شيئاً إلا إذا سبت سداً معهم»
إن إيفان الآن حجة في تاريخ مصر. وبعد بحثاً طويلاً عن
عصير محمد على

ويطر كومزين إلى ساعته وهب واقفاً وهو يقول
لقد استغرقنا الوقت، يجب أن أصبح بوفيكوف إلى أبو
سمير . لباحرة سنقوم بعد قليل .

وودعته.. بعد أن قال لي
قد نغضك عدا هي موعد أنسب وتكمل الحديث .
ولكنى لم أزد.. سافرت إلى القاهرة.. وسافر هو إلى موسكو
ثم نقل إلى منصب آخر.. بينى سد في مكان آخر

◊ تائه في باريس

قابلت أ. ن في بوليفار السان جرومين، وكانت مصافحة عجيبة أن يكون أول من ألتقى بهم ممن أعرفهم في باريس، لأنني كنت أود أن يكون أول من أقابل، ولم أكن قد رأيت أ. ن منذ خمسة عشر عاماً، منذ قرر أن يحمل متاعه وكل كتبه وأوراقه وأقلامه وهي لا تملأ حقيبة واحدة صغيرة وأن يرحل نهائياً إلى باريس .

وبدت واستولت عليه الدهشة لم يكن . ن كما عرفته وكما درعنا مع حوارى القلعة وأرففتها، ولم يكن كك تصوريته وم تصوريته أن تفعل به خمسة عشر عاماً، في رحاب المدينة التي جاءها لأنه لا حياة ولا حرية خارجها،

وكان يسير هدناً صامتاً، بر وديعاً مسكياً، وخفيف النقيب وجهه لوجه، بدا وكأن لم تثره المفاجأة كما تصورت أن تثيره وإن كان قد سئم على شوقي شديد وإبما وهذا أشد فثار عصى - بحرر وأب جم لم يكن لبوهيمي الذئب الصاخب على كل شيء والساخر بكل شيء وغير المكترث بشيء كما عرفته هي

الفهرة. ولم يكن الكاتب الفاحح الذي تنهات عليه دور الشر والذى تنهأى تحت قدميه الحسان، والذي يعيش حياة أصحاب الملايين كم سمعت عنه فى باريس ولكنه كان يسير وكأنه يحمل ثقلا ثقبلا عميقا ويسير به فى سكون واستسلام .

منذ خمسة عشر عاما تعرفت عليه عند رسام صديقى كان يرأس تحرير مجلة متواضعة وذهبت إليه أحمل قصة كتبها لى يرسمها وينشره . ويدفع ثمنها وقال لى صديقى إن أ . ن كاتب قصصى يكتب بالفرنسية وإن هذه فرصة لى أقرأ القصة أمامه.. واستمع إليه حيد ولكن حينما انتهيت صاح بلا مقدمات « هذا مر ... هذا هو الأب الهزلى المريض. الذى لا يمكن أن تتجوا غيره» ويعبر مقدمات ولا تردد أخذ يصيح بأعلى صوته « أنتم كسانى جباء سطحيون ومعلمكم يعيش هاربا أو غريب فى هذا المجتمع.. هذا المجتمع المعون كان يجب أن ينح جوجول وتشيفوف وديستوفسكى وجوركى معا مرة واحدة، ولكن كيف يمكن أن ينجدهم وأنم تعيشون على سموم يبيعها لكم كتابكم الكبار كيف يمكن أن ينجب إذا كان كل كتابه مثل كل زعمائه قد خانوه .

ورسكت، وأرتج على لهذه الثورة العارمة الماحقة ولكسى

أثرت الصمت وطوليت القصة ووضعتها في حياي وأنا اتمير غيطا.. ولكنه مع هذا لم يستنج ولم يكف وأخذ يصيح «هذه ليست كتابة إنني أجن غيطا من كل شيء أقرؤه وأسمعه خصوصا لهؤلاء المندوبين.. إن الكاتب في هذا المجتمع الملعون يجب ألا يحمل قلما، يجب أن يحمل قنابل يجب أن يجد الشجاعة ليتحدى كل شيء، وليصدم كل أحد من تكتب إذا لم تجعل هذه النعل لتي تركبها تحجل من نفسها أو ترتعب من مصيرها، ومن تكتب إذا لم تجعل الأشلاء التي ترحف في قريبا وحواريها وهي إسبانيشا تقف، أو حتى تحاول أن تقف» .

واستمعت للدرس كاملا وهممت بالخروج لولا أنه أصر على أن أنقى وأن يدعون للعشب لأن معه مبلغا من النقود ولأنه معها كان الأمر فهناك احتمال ان قد أكون كاتبيا يوما من الأيام «فإنه يستشعر بعريته التي لا تغطي أن هذا قد يحدث» .

وحينما انتهت الليلة كما أصدقاء حميمين وعرفت أنه يكتب قصصا بالفرنسية، وأن سر تعاسته الأكبر أنه يكتبها بالفرنسية، ولا يعرف العربية.. يفهمها ويقرؤها ولكنه لا يستطيع أن يكتب بها «لو كنت أكتب مثلكم بالعربية لو كنت أعرف كيف أكتب بالعربية، كنت اجعل كل مصري هنا يحجل من نفسه كتب

أجعل كل مصري يستبشع حياته.. كنت أجعل الأرق والقلق والأشباح المخيفة تغيب كل مصري' حتى لا ينام وحتى ليسأل نفسه كل يوم كيف أقف متفرجا من هذه المأساة» .

وانقلب في تلك ليلة على أن أترحم له بعض قصصه إلى العربية، وأن نقرأ مع بعض القصص لطويلة والقصيرة لمؤلفينا الكبار .

ودفع إلى ذات يوم عددا من قصصه وقراءتها، كانت شيئا نظيفاً شاعرا، يثير العرع وأحيانا الفتيان قصص تنرف دما وصديداً، وشخصيات مهرومة مستدلة مسحوفة، انتهكها المجتمع وداس كل إنسانيتها وقذف بها كنفاية في أسفل القاع، كنت كل قصصه مدمنين ومهريين وبغايا وقوادين ورجالا وساء سقطوا ولا يمكن أن يقوموا، أو رجالا ونساء يسيرون إلى السقوط ولا أحد يأنه لإنقاذهم ولا يمكن لأحد أن ينقذهم .

وكانت مكتوبة بمقدرة وبإخلاص، ويحب أيضا، ولكن كان من المستحيل أن تترجم ومن المستحيل أن تنشر كيف يمكن أن تترجم وأين يمكن أن تنشر؟ وأي صحيفة أو مجلة أو دار نشر في بلد يحكمها ملك وباشوات وخواجهات يمكن أن تسمح بهذا، أو تدع هذا يتداول؟.. ذهبت إليه وقت له، قلت له أنه لا فائدة من

ترجمتها لأنه لا أمل في نشره. وذر وصخب كالعادة وصاح بأنه كان يعرف هذا وكان متأكدا تماما من هذا وأنه لهذا «لن يزدهر أدب حقيقي في مصر. ولن يقوم كتاب حقيقيون في مصر ولن ترسم صورة كاملة لمصر. لن نكتشف أفسسنا ولن نكتشف حياتنا» ولكنني قلت له أيضا إن مصر ليست هذه المصادج المنهارة المحطمة التي نسيها الله والتي أودعها في منازل الموت المؤكد. إن هناك مصر أخرى إيجابية لا تموت ولا تنهرم ولا تعزف بالنهاية ولا بالهزيمة . وكان هذا بداية ثورة أنت تريد أن تعلمني مصر أنت تريد أن تعلمني الحياة.. مصر كلها هي نفسي. مصر كلها حية هي نفسي. ثرث خمسة آلاف عام يكس في قلبي وعقلي وأنت مجرد حطيط وعقل دماغوجي لا تعرف شيئا ولا تريد أن تواجه شيئا. أين مصر الإيجابية هذه.. كيف يمكن أن تعرف مصر الإيجابية هذه، قبل أن تنفذ إلى قاع البحر. قبل أن ترى كل مافي قاع البحر. قبل أن ترى الزكام المكتوم الذي لا يطلع عليه الفجر ولا يرى النهار أبدا؟ كيف يمكن أن نلهم هذه الطاحونة العمياء التي تسحق الإنسان كل يوم. إذا لم تستطع أن ترى ضحاياها إذا لم تستطع أن ترى مدى وحشييتها. إن الذين أكتب عنهم هم الذين عاشوا كل المأساة

عاشوها كاملة لأنهم لم يقاوموا. ولم يقاسوا هؤلاء هم الذين أريد أن أضعهم في كل واجهة وعد كل منعطف، وأعلقهم في كل حائط وعلى كل جدار. وأقول للذين قذفوا بهم إلى الهاوية والذين أسدلوا طلاما كثيفا عليهم. والذين أداروا أعينهم لكي لا يلتفتي بهم. إنكم لا تستطيعون أن تهزبوا من أثامكم ولا تستطيعون أن تخفوا جرائمكم .

وتكررت هذه المناقشات. وكانت تدور أحيانا بشكل عنيف بيه وبين أكثر 'صدقائه' حتى جاء وقت لم يكن بحتمه أحد.. وكانت حياته سلسلة من لشجار تتخلله أحيانا لحظات وبصقات ثم رحل إلى فرنسا ذات يوم... جاء وأعلن أنه قرر ألا يبقى في هذا البلد وأنه سيرحل إلى باريس لأنه يريد أن يعيش كما يريد. ويريد أن يكتب كما يريد. ولأنه يريد أن يعيش حياته كاملة. وأن يكتب نفسه كاملة وأن يجد حوله من يفهمونه .

وأقما له حفل ودع، وشرب كثيرا. كثيرا جدا كما لم تعود.. ووقف يحط قائلا «إن مصيبة الكاتب الفقير هي أنني لا ينتمى لمجتمعه الراكد وأنه يسبق مجتمعه الراكد ولهذا، أرحل إلى مجتمع متمدن. إن المجتمع المتمدن هو الذي ترى فيه امرأة جميلة مغربة فتذهب إليها قائلا، لماذا لا نقضي الليلة

معنى؟ إننى أحق رجل بك لأنى فنان موهوب أستطيع أن أجهت وأن أندوكك والمجتمع لمتدين هو الذى ترى فيه رُسعالبا مكرشا بغيضا، فتذهب إليه وتقول، إنك خيرير وصيغ تملأ الحياة حقدًا وكرها وجشع. ولابد استقاما لحق ولجمال أن أضعف، وتهوى بصفعة على قفاه . إننى راحس أنها لأصدقاء وستسمعون الكثير عن ضعفائى وعن عشيقائى، وضعفنا للخطيب المفعوه. وودعاه

وسافر ولم يكتب لأحد مطلقا وبقطعت أخباره ونفرت أصدقاء وزملاء هذا العهد

ونسوه وسط راحة الحياة ومشاكل الحياة ومنذ بضعة أعوام بررت أخباره فجأة ثم تتابعت متلاحقة قصصه وكتبته تتسابق عيها دور لنشر لكبرى فى فرنسا وتترجمها دور لنشر لأوروبية والأمريكية و آلاف الجنيهات تنهمر عيه وحسان باريس تتهاوى تحت قدميه، ممثلة سيمما معروفة تلاحقه وبذوب هوى فى عرامه . وحياة ترف وبذخ هى قلب باريس وفى عواصم وملاهى أوروبا مثل أصحاب الملايين.. واشتريت قصصه وقراءتها. كانت أفعالا نستحق. كنت تساوى كل الصبغة لتي تُثريت حولها وكل الثمن الذى قبضه، وقررت يوما أن أترجم قصة له. وكنت أحس

خلال كتاباته أنه قد حقق ذاته كاملة وأنه ليس للكاتب ولا يمكن أن تكون له متعة أكثر من تحقيق نفسه في كتبه وفي أبطال قصصه.. وبدأت فعلا الترجمة ولكن سسينها في غمرة واجبات وأحداث كثيرة، وذات يوم في العام الماضي وجدت ترجمة انجليزية لأخر قصة كتبها واشتريتها وقرأتها وشعرت بأنم كثير وبحسرة أكثر شخصيات هريفة وألوان باهتة وأحداث مفتعلة وكانت حقت بنابيع إلهامه ولا يجد شيئا يقوله ويعتصر اعتصارا، بحيرته القديمة تراث الخمسة آلاف عام التي تعيش في لا شعوره قد استهلك وفرغ ومصر التي يكتب عنها لم تعد توجد إلا هي خبلة، وأبطالها الذين نسيهم الله قد وقفوا وسبقوا وحطموا أسوار دور الموت المؤكد. لم يكن في أبطاله ولا في كتابه الصدق والعمق.الذي كان في كتبه السابقة.. بل كان يبدو وكأنه يكتب عن عالم مفقود لن يوجد أبدا وعن أناس اخترعهم ولا يمكن أن يعيشوا على هذه الأرض. ولم أكتب له طبعاً ونسيت كل شيء حتى التقينا في السان جرمان دي بريه وقال «هذه هي قهوة الفلور.. كانت قهوة الوجوديين أيام مجد الوجودية والوجوديين كان سارتر يجلس عليها وحوله تلاميذه وكان يبعث الحياة والحرارة في باريس وفي أوروبا كلها.. ولكن

استذل النازيون والأجانب الوجودية وأصبحت تسلية لسباح الأمريكيين وأصبح جان بول سارتر وتلاميذه مثل «مروج يافله» أحد عرائش باريس وطوائف باريس ولهذا رحل وهنتذا ترى هذه هي جوليت جريكو إحدى كمشاهات سارتر ومعينة الوجوديين، إنها تلبس ثوبا من عند كريستيان ديور وتكسب الملايين من هوليوود وقد ظلمت القسيس الأسود والبنطلون الأسود وصفت شعرها المتهدل ولم ترخص بعشيق أقل من د ريل زانوك ملك السينما الأمريكية الذي يجلس كالعنلق المصيع جوارها .

وهذه قهوة الديقجو، لقد كانت هيما مضي قهوة الكتاب والفنانين والشعراء ولكن أصبحت الآن مقهى الأنغياء كل هؤلاء الذين تراهم يتصورون أو يريدون أن يتصور لناس أنهم أدباء وشعراء. باريس أجنحت وفرغت ومنذ الحرب لعالية الثانية لم تنحب سوى جان بول سارتر وقد قال كل مالميه ولهذا يعمل بالسياسة .

وتطلعت إليه مستغربا باريس أجديت ؟

- نعم أجديت لماذا تستغرب هذا؟.. إن الأقنية من الكتب

الحقيقيين إما صامتون لا يتكلمون وإما يعملون في الإدارة

والتليفزيون ليكسبوا خبرهم.. وإما يهرعون إلى مزارعهم لأنهم
يخافون من زوجاتهم

وسار إلى بار صغير في شارع خلفي من شوارع الممان
حرماني وقال لي هذا البار الصغير هو الحدث المثير في حياة
باريس من المقاهي والبارات هنا مثل الفلسفات والاتهامات
مجرد نروات تتور أحيانا، وتردهر حتى يفتح مطعم حديد أو بار
جديد أو مقهى جديد وتظل الحلقة مفرغة .

وبهشت حينما جلسنا لأنه لم يطلب رجاجة من الحمر ولم
يتحررها بشراة كما يفعل، وإنما طلب كأس من الفرموت وأخذ
يحتسيه بهدوء

وسالت وأنت ماذا تفعل؟ وقال أنا.. أنا أعيش في الفراغ
وأنا أعيش في الفراغ المطلق. وليس في رأسي شيء ولبس في
قلبي شيء ولا أفكر إلا في شيء وحيد، أريد أن أرجع إلى
مصر ، أريد أن أعود للقاهرة مرة ثانية إنتى أنتى إلى هناك
ولا أنتى إلى هنا. أريد أن أرجع وأر أتعلم العربية وأن أكتب
بالعربية وأن أكتشف حياة جديدة والنماذج الجديدة

أريد أن أعود إلى القلعة وإلى بيت العذنين وأن أنزع شارع
محمد علي من مسجد السلطان حسن حتى العنة الخضراء

وسكت بعض الوقت ثم قال

ليس عريب أن أحس.. أنا الذي عشت في باريس كما أحس الآن بالصقيع أحيانا أقضى ليالى عصبية وأرى أجلا ما مرعة وأظل مؤرقا طول الليل ومصنما على أنني سأحرى في الصبح وألحق بأول طائرة ذاهمة إلى القاهرة. وأسى حينما أحس سأذهب إلى النيل وأظل أشرب ماء العكر وأشتري قذرة من الفول وكومة من الطعمية وأظن أكل شراة. حتى أشبع من الجوع .

خمسة عشر عاما.. اهـ هل تذكر على صاحب المسقط الذي كان يكشف لنا الحلة ويقول «شموا النواخ ده عمرى صيكم زى اللحمة تمام» ننى أبيع نصف عمرى لكى أشم نواخ المسقط عند على .

وزوجتك.. أين زوجتك ؟

- زوجتى طلقته. هل تدري لماذا طلقته؟ قالت لى ذات يوم لماذا لا تصبح فرنسي . بنى سأساعدك.. وهين لها أنها تريد أن تم على وتتفضل بأنها ستساعدنى بأن أكون فرنسيا.. وأمسكت بجواز سفرى المصرى وأحسست أن خمسة آلاف عام من التراث تشدنى إلى هذا الحواز ولا يمكن أن أتحطم منه إن

مصر عالقة في روعي وفي نفسي بحبال عميقة طويلة طول التاريخ. لقد كنت أنغب كل عام لأجد الجوار وأقيم بين نفسي حصة ذات طقوس وتراثيل هل تذكر «فكيهة» طبعاً لن تراف أبداً.. إنني اكتشفت أن المرأة الوحيدة التي أحببتها وأحببتني كانت «فكيهة» التي لم تقرأ حرفاً واحداً لي والتي لم أعرف تماماً ماذا يدور في رأسها عني وماذا تتصور عني.. أي دفء وهدوء وعبر. لماذا تضحك؟ إن ما زالت مراهما خجولا كما عرفتكم هن هناك أجس من لفجور الصديق؟ ما رأيك. لماذا لا نتكلم ؟

وقلت له أليس عجيب أن تكون أول شخص ألتقي به في باريس.. وأن تكون أنت الذي كنت أبحث عنه إن ما قلته الآن هو ما أريد أن أقول لك.. كنت أريد أن أكتب لك بعد أن قرأت كتابك الأخير وبعد أن أعطيتك له «....» ليقرأه.. وكان رأيي مثل رأيي تماماً لقد انفصلت عن جذورك و انتزعت نفسك عن تراثك و فرغت تخيورك وإن لم ترجع فلا بد أن تبحث عن عمل آخر غير الكتابة إن حياة جديدة قد تدفقت في عروق مصر ونفذ خيط من النور إلى قاع السئر وتذكر الله «محاسنيك» وإن لم يمنحهم الحياة إلا أنه منحهم الأمل .

والتفتينا عدة مرات وفي كل مرة كان يقول لي إنه يعد نفسه

للرحلة.. الرحلة الطويلة، عائد ،

وقبل أن أغادر باريس ذهبت إليه وقلت متى سنترك ؟
وقال لي لا أظن لا أظن أنني سأعود إن باريس تستبد بي
مثلما تستبد بي القاهرة، إنني أريد إرادة هرقل لكي تسترعى
من هنا وتقذف بي عبر البحر إلى الشاطئ الآخر. ربما كنت كما
وصفني «س» لست مصرياً أصيلاً. لست أنا حقيقياً لمصر
وربما كنت حقيفة «ليهانيني» أعيش في عالمين مختلفين ولا أتنمى
إليهما

وودعته للمرة الأخيرة لم يعد له خلاص ثياب كساحه ' .

◉ ليلة في روما

كانت أحسن وصية أوصاني بها وهو بودعي هي مطر
«أورلي» نارييس

- حينئذ تصل إلى روما اسأل عن مقهى «لنوبيي» في
لفيافينيتو وما عيت إلا أن تجلس هناك وتنتظر. وستمر يطالب
كلها وربما العالم أيضا أمامك.. كل من تريد أن تقاسمهم من
جينا لولو بريجيذا حتى بالميروتولياني. وربما مر قداسة الباب
أيضا .

وابتسم هديفى الذى كان يعرف كل قصنى كاملة مع نارييس
وقال

وفي روما ستغسل كل حرف نارييس. تكذب.. كل م هات
هنا ستعوضه مضروب في عشرة^١

وحينما وصلت إلى روما واكتشفت مقهى دوبيي في شارع
الفيافينيتو تكذبت تماما من صدق صاحبي الفنان وأرسلت مئة
قبة في الهواء. وكانت روما أحر محطة لى في الطريق إلى
القاهرة وكنت قد صممت على البقاء أسبوعا فيها أنفق أحر ما

نبقى معى وأقضى الوقت كله بلا سياسة ولا دراسة ولا كتابة ،
فقط فى ميشيل أنجلو حتى فينوزيو دى سبكا .

وحيثما وضعت حقائبي على العندق . ساكت هورا عن القيهينتو
ومقهى دوبيى وذرت الشارع مرة . أحسست أنى أستطيع أن
أكتفى بهذا الشارع فقد وأنى أستطيع أن أقطعه وأذرعه طوال
الأسبوع بلا ضيق أو ملل . وتصورت أنى أستطيع أن أقضى
كل أسبوع أستعرض فقط واجهات المحلات وأنتقل بين المقاهى .
واكتشفت شيئا جديدا ومريحا . كانت كل وجهة سوء لحل بقالة
أو ريبات عتق أو 'حذية كانت معرض عن كاملا . تتأمله ساعة
بعد ساعة . وتتخيل كيف يمكن أن تكون الحياة جميلة وأنيقة فى
كل شيء وأى شيء .

وحيثما استرخيت على مقعد مريح فى مقهى دوبيى أحسست
أننى لا أدرك مدى الإرهاق الذى تتحمله فى باريس ومدى
حاجتى إلى راحة طويلة لأغسل آثار هذه المدينة البغيضة .

وقد كرهت باريس كما لم يكرهها أحد بحرارة وعنف وحنق
لم تبرد حديثه . ويوم عايرتها كنت أستعجل كل الإجراءات فى
المطار . أستعجل لحظات الخروج وأحس بالراحة للحلاص ولا
أنوى مطلق أن أرحع إليها . ولم يكن فى نيتى مطلقا أن أكره

باريس ذهبت مفتتحا موضوعي وهي تعسى كل ما قرأته وما سمعته وفي أول يوم وقفت في الشانزليزية، وقلت «هذه هي باريس»، وتذكرت أحد أستاذتني وهو يزُر «عشرة أيام في باريس». عشرة أيام في باريس. يلزمك عشرات السنوات على الأقل قبل أن تكشف لك باريس صدرها، قبل أن تعوض في يتابع لا تنتهي من الفن والفنية، من وقتة في كل شيء، هي أحجار الرصيف وفي ورق الشجر وفي كل قطرة تحرى من مياه السين» .

ومرت بخاطري باريس توفيق الحكيم حيث بقى «محس» تحت تمثال ألفريد دي موسيه «يقرا والمطر يتساقط» «لا شيء يجعلنا عظماء مثل أدب عظيم، ويسير إلى الأوبرا ليقطع تذكرة في أعلى التياترو ويعازل بائعة التذاكر ويحصل منها على موعد» .

ثم يقضى الليل يناقش مصير العالم مع روسي محوِز عركه لدهر ..

ومرت بعدها باريس الصاوي حسان بلا أول ولا آخر يضرر إليث من طرف أعينهم ويبتسمن فتتسم أنت أيضا ونقول «هل تسمحين لي أن أشاطرك لمائدة»

تفضل.. من أين أتيت ؟

من مصر ..

- اه مصر.. بلد النيل والأهرام والسحر الخالد.. لقد

تكهنت بهذا من جاذبيك وسمة بشرتك .

ثم ليلة عاصفة بين ماسارتر ومونارتاس. وعو لم سحرية

غامضة من نفحات الفربوس على الأرض .

ومرت باريس زكي مبارك. وطه حسين. حني رفاعة رافع

الطهطاوي بوهيمية وحب وعلم وعمق. وصراع عقلي وفكري

وانصهار للنفس والروح واكتشاف للحق والخير والجمال. ونفاذ

إلى سر الحياة وسر الكون من أجمل وأقصر باب .

وقلت لنفسى لا يمكن أن يكون هؤلاء لأساتذة الكبار قد

زيفوا باريس أو اخترعوا باريس أو باعوا إلينا وهم اسمه

باريس. لابد أن هناك شيئاً لا أستطيع أن أكتشفه بعد يوم أو

يومين. وتذكرت حكمة واحد عمما سماح الموسيقى المشهورة

«لن تحب أول سيمفونية سمعتها لبيتهوفن. هل أحببت أول رواية

قرأتها لشكسبير؟ هذا تراث آخر غير تراثنا. ولن نحسه أو

نعيشه إلا بالمعاناة» .

وظللت أعاسى فى باريس ولكننى يوم غادرتها كنت أكرهها ..

ثم أكره مدينة مثها، «باريس مثل الراقصة مستنجبت تقضى أيامها في النظر إلى صور سيقانها وصور عناقها.. وماصيها الزاخر.. الذي ذهب» .

ولقد جلست في الطائرة، أحاول أن أخلص نفسي من هذا الكره.. وأسأل نفسي لماذا حدث ولماذا استبد بنفسى أحيانا إلى هذا الحد ؟

وتذكرت أول حادث.. تناولنا العشاء في مطعم صغير أن وصديق مصري وآخر جزائري.. كن أول من عرعت من الجزائريين في باريس وكان مختلف كثيرا عن الجزائريين الذين عرفتهم.. لم يكن يضطرم بالثقة والشجاعة والاستعداد لأي مصير، ولكنه كان رقيقا حريصا حزين بالغا . يبدو وكأنه يعيش تحت وطأة مأساة كبرى يحمل همها وحده ولكنه كان يتفقد نكاه وحساسية .

وظل ثلاث ساعات على العشاء يشرح لنا القضية، ونحن نستمع إليه كتلاميذ لم يعرف شيئا عنها من قبل.. وحيما انتهينا خرجنا لتسمع قليلا في (السن جرمان).. ولم يكن الوقت متأخرا بل قبل منتصف الليل.. ووجدنا سيارات البوليس تلق في أماكن متفرقة من الشارع والعساكر ينتشرون

جماعات في أنحاء الميدان. وجاءنا أحدهم وقال : لأوراق الشخصية من فضلكم . ورأيت وجه صديقنا يمتقع. وكل ما فيه يضطرب ويهتز ويحاول جاهدا أن يخفي هذا. ونظر العسكري في أوراقى وأوراق رمبلى وحيما أخرج الجرائدى أوراقه نظر إليه من رأسه إلى قدمه وأشار إليه بأصبعه إلى سيرة سوداء من سيارات «البركس» كانت واقفة على لناصية. وأشار إليها بأصبعه أيضا أن تمضى في طريقنا

وأنهتني المفاجأة. وأحسست بهور ما بعده هوران وحقد ليس بعده حقد وأنا أنظر إليه وهو يسير إلى السيرة لوكس ونحن نلف حجرة لانستطيع شيئا ونصورت أن أنكم العسكري في وجهه أو أن أبصق في وجه الضابط الواقف وراءه. أو أن أصرخ وأقول «أهده هي الحرية؟». وأحسست بعصاة كبرى وأنا أتبعه بنطراى ولكن صديقى قل لى

«لا تقم بأية حركة وإلا أخذونا معه.. إنهم يتربصون لأى مصرى حصة وعلى كل فهذا روتين بالفسنة للحزب نريى.. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة سيطلقون سراحه». وحدث هذا على بعد أمتار من تمثال دابنوت

وتذكرت «س» كان شابا حليلا فاصلا من الصحراء

الحرثية.. يدرس الفقه الإسلامي في معهد الدراسات الشرقية في باريس ولكن الفقه الإسلامي كان أحد علوم اختصاصاته فقد كنت حاضره بالثقافة الحديثة والثقافة الفرنسية تضارع تضلعه وتعمقه في تراث القديم وتضارع وعنه السياسي وخماسه الثورية، وكُن يقول لي دائما «إن الثروة الثقافية في الجزر تسمير جب إلى حنب مع الثورة السياسية والثورة الاجتماعية وسيكون عنتنا حنب مضاعفا، لأننا سبدا من نقطة بعيدة المدى». وكنا نقضى ساعات طويلة في مقهى سب جرمان في حبل سدا أحيانا من امرئ النفس وينتهي إلى حنب بول سوتر ومن نبي نر لعفاري حنب كارل ماركس .

وحبما جاء رمضان، أخذنا بلتقى يوميا قبل موعد الإفطار وكنا صائمين مع القلة المسلمة الصائمة في باريس، ونذهب معا إلى مطعم طلبة شمال إفريقيا وقد يستغرق في الحبل حتى السحور.

وكان «س» حريصا على مواعيد حرضا دقيق، لا يمكن أن يتأخر دقيقة أو يتقدم دقيقة وحبما يكون لومع في لساعة السادسة لابد أن تضبط عقارب الساعة عليه.. وذات يوم ذهبت كما تعودنا أن نلتقي.. فلم أحده ولم يحضر وفات موعد الاقطار

ولم يظهر له أثر. ومر أسبوع كامل عاد بعده من «الروتين» وقال إنه قصى الأسبوع في غرفة مظلمة معتمة وعلى الأسفلت ليس بها سوى بطيئة واحدة.. وبهم استجوبوه ضمن ما استجوبوه «من المصرى الذى يلزما أوقانا كثيرة» وكان يضحك ويبتسم ويقول لى. «هذه سحافات. نحن قهريناهم. وهم يعرفون أننا قهريناهم» .

ولقد شعرت باشمئزء ليس بعده اشمئزء بعد قصة «س» هذا ولم يمح فى إزاحته من نفسى أنه نفسه أخذ يقول لى «لا تكره فرنسا ولا تكره فرنسا ولا تكره هذا الشعب. إنه مسكين . شعب ثائه ضائع يتقافه مفامرون سواء من اليمين أو من اليسار» .

وتذكرت أسى ذهبت بعد وصولى إلى باريس بنضفة أيام إلى صحفي فرنسى كبير عرفته فى القاهرة حيث اشتغل رمنا طويلا مر سلا، وكتب كثير عنها ويعمل أخصائيا فى الشئون العربية وشئون شمال أفريقيا فى جريدة «المود» عميدة الصحف الفرنسية. وقلت له «أريد من عشرة أيام أن أفهم الموقف فى فرنسا».. وهز رأسه قائلا «لوقف فى فرنسا».. إمنى أريد أحدا يفهمنى إياه أولا» .

وقالت لي زوجته صاحبة ، « ابحث في باريس كله ، يا
وجدت وحدا يفهم الموقف في فرنسا ، فنرحو أن نذلنا سرعة
على عنوانه »

وعشت شهرا مرهقا ، ما أقنع به في الصباح أنقضه في
المساء ، وما أكتبه في المساء أمزقه في الصباح ، وأجرى من هنا
إلى هناك لأقابل أحد الصلاب الشيوعيين أو «الاشتر كبين أو
لراديكاليين أو «النيحوليين» وأشفرى حزمة من الحرائد كل
جريدة منها عالم مختلف وهرسا مختلفة وأغلق العرمة وأطل
أهل ألعارها ، و أشد الحرام يوما لكي أشتري كتابا سل لعسى
في كل مرة رأيت فيها في واجهة المكتبة ، وكان الحزام مشدوبا
تماما منذ البداية وقد دلى صديق على مطعم يقدم السجق
والبيض والبطاطس المقي فقط وخفف على الوطأة بأن قال لي
إن المطعم الذي يجاور هذا المطعم كان يتناول فولتير فيه طعمه
ويكتب مقالاته '

وذ ت يوم ضقت ذرعا بهذا الطوق الحديدي الذي لم أعوده
أندا ومللت الخروج من أقمية المترو... أو الركوب في الأوتوبيس
مسافات ومسافات ومن السجق في الطهر والبطاطس والبيض
في لساء... وقررت أن أذو فتاة عرفتھا وأن تركب تاكسب وأن

تناول العشاء في أحد مطاعم (الشانزليزية) وأن أعيش باريس
وليكن مابكون.. ولم تكن العناية فاطمة طريق ولكنها كانت
مكافحة برتغالية ضد حكم سالازار تعيش هاربة في باريس
وقد ظلت ندمع في تحقيق هذه لرعة «الحمقاء» ولكنها ذهبت
محاداة لإصراري وحينما جاءت فاتورة الحساب سقط قلبي
لقد أدى العشاء إلى اختصار أسبوع كامل من إقامتي في
باريس. وفق لللائحة المحددة .

وأخذت أدفع هذه لمشاعري.. ينني لا أحب عادة أن أكره أحدا
أو أكره شيئا. ولا أريد مطلق أن أكره بشا أو أكره شعبا. ولو
كن «فرنسا» وأخذت أتذكر فرنسا الأخرى فرنسا حاك بيرج
ومكسيم روبنسون وجيل مارتينييه وشراسبير .

«جاك بيرج» الذي ولد في الجزائر والذي أحب العرب والذي
كتب عنهم كتباً من أحسن ما كتب عن العرب لعصرين.
والذي يدرس في الكوليج دي فرانس تاريخ الثورة العربية وعصر
توفيق والذي يكافح من أجل الجزائر ومن أجل حرية الجزائر
ويريد أن يبدع حلا اشتراكيا . ويبني مرة أخرى لصلات
لروحية بين فرنسا ولعرب. صلات محتومة بالدهى
والاستقلال

تذكرت هؤلاء لأمحو لصورة . ولكنني أحسست أن هؤلاء
أصوات مدمجة في البرية أصوات ضائعة لا يسمع لها أحد
ولا تستطيع شيئا في تحديد مجرى الأمور .

وحينما ارتفع صوت مضيئة الطائرة قائلة «بعد لحظات
سنهبط في مطار روما . ونشكركم على استقر معنا . ونتمنى
للمفكرين رحلات أخرى طيبة ..» انزاحت الذكريات وبدأت
أستعد للعالم الجديد روما من الإمبراطورة مسالينا إلى
صوفيا لورين . سأعيش كمسح . مجرد سائح .

وكانت يوم كانت مقاعد الدوبيي مدمجة أرحاما غير عادي
كانت مزوة من السياح الأمريكيين الذين يرحمون كل ركن وكل
شبر في روما . وحامت حساء عراء فرعاء هيفاء وأخذت تتطلع
هنا وهناك . وأصبحت المقعد الخالي على منضدتي . وحامت حوله
قليلا ثم تقدمت وقالت بإيطالية عذبة .. أو هكذا بدت لي . تسمح
ورددت بحديثي الكلمات الخمس الإيطالية التي تعلمتها
«تفضلي» وجلست وطلبت كائسا من لمارتيني وأخذت تغلب في
بضع محلات في يدها وطيف بدأت أفكر في معامرة ربما كانت
هذه بداية معامرة وبدأت أفكر أنني أعود إلى مصر بغير شيء
فقط أرويه للذين سوف سيسألوني قبل ثورة الحزائر وقبل حكم

ديجول وقبل السوق المشتركة السؤال التقليدي عن معاملة في باريس .

ولم يكن هناك شيء مطلقا أرويه. ومرر بائع الصحف واشترت بعض الصحف لفرنسية و الأمريكية و استغرقت في القراءة وسيت الحلم البعيد الذي طاف بخيالي منذ لحظات ووضعت صحيفة الموند على المنضدة حتى أتصفح صحيفة أخرى ومضيت في القراءة. وبعد لحظات التفتت إلى وقالت بالإيطالية جملة طويلة لم أفهم منها شيئا.. وقلت بالفرنسية. آسف.. إنني لا أعرف الإيطالية. لا أعرف سوى خمس كلمات ردت عليك بوحدة منها .

ومضت وقالت بالفرنسية هل أستطيع تصفح حريده الموند؟

وقلت لها تفضلتي .

وقالت هذه أرقى صحيفة في أوروبا الآن. لنس لدينا صحيفه مثلها في إيطاليا .

ولم أندرب أجواب به فقلت لها «صحيح» للأسف إنني لا أقرأ الإيطالية. «هي أحسن الحرائد عندكم» وأمسكت الصحيفة بيدها وقالت. «من أين أنت؟»

قلت لها من باريس .

قالت. هل أنت فرنسي ؟

- لا ..

لماذا. لا هذه. متفحة جدا يبدو أنت لا تحب فرنسا ؟

- ربما لا. هل تحب الفرنسيين أنت ؟

لا أحبهم ولا أكرههم.. مساكين. هل أنت سائح ؟

نصف سائح. ألقى بصحة أيام فقط في روما .

- ماذا تفعل ؟

فهمت أنها تسألني عن مهنتي لا عما أعله في روبي فقلت

لها

- أنا صحفي .

- إذن ذهب إلى فيينا ؟

وكان أبها اجتماع خروشوف وكيندي في فيينا .

فقلت لها

ربما ..

- ومن تفضل خروشوف أم كيندي ؟

- ومن تفضلين أنت ؟

أنا أختار فييد. أجمل مدبنة في أوروبا .

- ثم ..

حروشوف أنا لست شيعوية ولكنى أحده سمعنايك إنه
رجل صيغى ويسيط. أما كبدي فيبدو أنه ينظر لنفسه فى المرأة
كل يوم ويفجبه وجهه

ألا تحبين الأمريكين ؟

- نعم. نعم. لا أحد فى أوروبا يحب الأمريكين إلا الوزراء
والجنرالات وأصحاب الفنادق. ولكاريهات وهل تحبهم أنت ؟
لا أحبهم ولا أكرههم.. مسكين .

وصحكت طويلا.. وقالت لى

- من أى بلد أتيت ؟

من مصر .

- اه . مصر بلد جميل أختى عاشت عما هناك

ونظرت إلى ركن المقهى فأبصرت منضدة تحو فى مكان
أنسب فقالت ؟

- هذه منضدة أحسن سأنقل هناك .

وتبخرت أحلام المغامرة. وانتهت القصة. وضاع حلم قصة
أروبيها فى القاهرة لجوع إلى المغامرات ولكنك بنفس الانشامة
لساحرة قالت

هل تنتقل إلى تلك المنصدة ؟

- بكل سرور طبع .

وإذن هناك شيء مروي به بعد العودة للأولاد . هناك شيء نستذكر به مهابات في باريس .

وحينما انتقلنا إلى المنصدة لأخرى التفتت إلى قائلة

- و لأن قل لي لماذا لم تحب باريس ؟

- فرنسا دولة انتهت.. انتهت منذ هزيمتها في يونيو سنة

١٩٤٠ وأصبح شيء هو رؤية كائن يعيش في غير عصره .

- ليس ١٩٤٠.. فرنسا انتهت عام ١٨٧٠ بعد هزيمتها أمام

بسمارك، ومن ذلك الحين وهي تعيش على حقن صناعية وعلى

أوهام كدومة.. عجيبون هؤلاء الفرنسيون.. إنهم يقولون دائماً

إنهم منطقيون وإنهم واضحوون وإنهم واقعيون ولكن أكثر شيء

يحافونه هو النظر إلى الحقيقة في عينيها.. نحن الإيطاليين قد

تحلصنا تماماً من هذه اللعبة وكانت لهزيمة بالنسبة لنا نقطة

البداية.. وأحسن شيء حدث لنا أننا لم نقل إننا لم نهزم وإنما

قد طعنا من لطف، بل تبدد الوهم العاشيستي الكبير وأحلام

إمبراطوريتنا ومجدينا.. نحن أردنا أن نعرف أنفسنا على

حقيقتنا.. أن نعرف تماماً وبالضبط من نحن.. وهذا سر موجة

الواقعية الجارفة التي طبعت كل شيء في حياتنا في الأدب والمسرح والسينما والسياسة والاقتصاد والاستراتيجية، وليس في إيطاليا كلها ربما ماعد حصة من المختلين من يأسف على عهد موسوليني . ولكننا مراها فترة من الشنوء غير الطبيعي كل ما فعلته أنها عميتا كيف تكون الآن شعبا طبيعيا . اما هؤلاء الفرنسيون.. مغرب أمرهم.. لقد عشت في فرنسا خلال لحرب كان أبي ضابطا في جيش موسوليني وكنت صبية صغيرة وكان دييجول لا يعمل الحديث عن عطلة فرنسا ومحد فرنسا ودور فرنسا التاريخي وأخيرا فصبنا فرنسا وكان أبي يشيره هذا أحبانا فيصبح «فضائل» إن كل صالونات باريس مفتوحة على مصاريحها لضابط الألمان وكل نساء فرنسا يتهاقن على صدقة أصغر ضابط ألماني ويحسسن برهو كبير لو دعاهن إلى مخدعه.. مع ذلك يتحدث ذلك العجور الأحمق عن العصيلة الفرنسية» .

وأحسست أن علاقتنا قد توثقت بعض الشيء فسالتهنا - إننا لم نتعرف على بعضنا البعض حتى الآن.. إيسى لم أعرف بعد اسمك ولا ماذا تعملين. هل صحفية مثلا ؟ - صحفية هل تعتقد إيسى أصلاح على كل لقد حررت

الكتابة.. مجرد محاولات ولكنى لا أكتب الآن سوى يوميات قبل أن أنام .

إذن ماذا تفعلين ؟

- ماذا أفعل؟ أشياء كثيرة بعضها يصح أن أقوله وبعضها لا يصح؟ بماذا تبدأ ؟

- طبعاً بالذى يصح

أنا مصممة أزياء أعمل بتصميم الأزياء فى محل فى بولونيا. أنا لست من روما.. ولكنى تعلمت الفنون وأشياء أخرى كثيرة فى روما ..

- أنت فتاة مذهشة .

لا ليس كما تتصور.. هناك آلاف من الفتيات أحسن منى بكثير فى روما .

- ولكن فهنك السياسى.. وكذاوك السياسى

هذا ليس مهماً ولا دكاء.. هن مجرد معلومات عامة، لقد طفت كل أوروبا .

وهل تنقبن كثيراً فى روما ؟

- هناك أغنية إيطالية تقول إر، كنت جميلة وغنية هناك تستطيعين البقاء كما نشائين فى روما وإذا كنت غنية فقط فأنت

تستطيعين البقاء أبيض، أما إذا كنت حموية فقط فربما
تستطيعين البقاء . ويجب أن نحاولي.. إنني أبحث عن عمر هب
ولكن هل تريد أن تعرف ماذا أريد حقا ؟

طبعاً أريد أن أعرف ؟

· أريد أن أترك أوروبا كلها. أريد أن أذهب إلى سد حي
مصطرم جديد في أفريقيا أو في آسيا . إن كل شيء في أوروبا
الآن ساقع بارد كالطعام الأمريكي المحفوظ أو كشراب معقم لا
نكهة له

هل تدري أسي أحب الأفريقيين و العرب و الآسيويين ؟
يحبون شيئاً يعيشون ويموتون من أجله.. أم نحن هنا في أوروبا.

- كثيرون عندما لو رأوا هذا الرجاء الذي عندكم أو تصوره
فسوف يحسدونكم عليه

- هذا الرجاء الذي تراه.. ينتهي بعد لفيافينتو بقليل، ولو
رأيت الحبوب في إيطاليا، لوجدت نفسك تماماً في مصر أو في
ليبيا، وحتى هؤلاء الذين يتمتعون بهذا الرجاء ليسوا سعداء كما
تتصور ولا مكتئبين بما لديهم.. وأنا مثلاً على استعداد لو وجدت
عملاً في قرية مصرية صغيرة أن أذهب أصمم أزياء للفلاحين
عندكم ألا يمكن ؟

وضحكت كثير .

إن لعلاحين عندما لم يجدوا بعد ما يلسونه حتى ينتقدوا من يصمم أزياءهم، والتصميم واحد منذ أول جلابة لبسها فلاح... وإن تستطيع تغييره طبعاً ولكننى تمنيت لو استطعت أن أصبحها معى.. طبعاً ستكون الدليل القطع على مغمرة .

أحسست معها أنى أدركت الفرق بين المرأة الأوروبية والمرأة عدا . افرق بين المرأة الداهية المتكاملة عقلاً وجسداً وروحاً والتي يستطيع الإنسان أن يعيش معها حياة كاملة ومتجددة، وبين تلك السطحية المنكفة المدعية التى ينتهى كل ما عندها بعد لحظات وتعدو حملاً ثقيلاً مملاً، وتكرت صديقاً لى يعيش بحسرة عمره لأنه رفض أن يتزوج زميلته الإنجليزية التى أحبها وأحبته وفهمته لأنه أراد ألا يخون بنات بده . ولأنه تصور أنه لن يشعر بالامتراج الكلى لوثيق إلا مع بنت من بلده . وبعد شهر كان يعيش فى الفراغ القاتل . كان يعتصر مخه ونفسه ليجد شيئاً مشتركاً يمدتها عنه وغالباً.. لا يجد وأيقظتني من (لمرحة) قائلة

- فيم استفرقت ؟

فى قريقتنا، لا شيء يربطنى بمصر أعرق وأعنف من

قريت .. مأساة قريتنا .. هل تتصورين أنى لا أومن مصفا
بالهروب؟ إن المصري لابد أن يعيش في مصر ويحومن معركة
مصر ، ويعيش ويموت وينتصر هناك

- هذا التفاؤل والحماسة هما ما أحسد عليها الشرقيين،
إبنى أتمنى أن تكون لد معركة وأن أكون أول واحدة تسقط فيها
ولكن المصيبة أن ليس لدينا معركة، ليس لنا معركة.. لقد كنت
شيوعية وكنت اشتراكية وكنت كاثوليكية، وحاولت أن أجد ما
يملا حياتي في الحزب الشيوعي أو الحزب الاشتراكي أو في
أحضان الكنيسة ولكن لم أجد شيئا .. إن الحزب الكاثوليكي هو
فرع من جهاز ال، ف، ب ' الأمريكى لمقاومة الشيوعية وهو
منقسم بين الذين يورقهم بقايا ضمير كاثوليكي .. وبين الذين
مهموا روحهم نهائيا .. والحزب الاشتراكي انقسم على نفسه بين
ساراجات ونينى، وساراجات باع الاشتراكية.. ونينى يقف
حائرا هل ينضم إلى لكاثوليك لينضم كتلة وسطا أم يبقى مع
الشيوعيين ويسير معهم إلى بيداء سياسية أما نوليدنى فلا
يعرف كيف يواجه نينى.. أو يواجه حربه.. وهل يسير مع روسب
أم مع الصين أم يستقل عن هؤلاء هؤلاء؟.

- اسمعى.. ولا نقولى «تفاؤل شرقى» إبنى أدرك أنهاد

المشكلة وأدرك وطأتها ولكنني أثق ثقني في رؤيتك أمامي أن
الإنسانية ستجد الطريق

تدوين 'ين وضعت يدي على مفاتيح الحرة' في مدينة
صغيرة في الهند قرب كلكتا أنشأ طاغور جامعة صغيرة من
بضعة بيوت من الطين، ويصنع أشجار بسقة عتيقة على سيق
جامعت لهند القديمة، حيث كان الأساتذة الكبار يعملون تحت
الأشجار وسماه حديقة السلام «الشانتينيكتن» وفي هذه
الجامعة وجدت أساتذة وتلاميذ من الشرق والغرب ومن كل
الديانات والمذاهب والعقائد ومن كل لسين والأعمار يدرسون
ويتعلمون معاً والأوروبي بجوار الصيني والمسلم بجوار
الهندوسي والمسيحي، والمرأة بجوار الرجل والطفل حسا لحنب
مع الكهل... ويدرسون مع كل تراث الهند وكل تراث الشرق وكل
تراث الغرب. ويرون الماضي في صلته بالحاضر بالمستقبل
وقالو لى إننا نؤمن بالتفاعل والامتزاج. إن الإنسانية مقبلة
على عصر عظيم يتفاعل ويتصارع ويمتزج فيه كل شيء
وسوف يخرج شيء جديد... ووضعت يدي يومئذ على الحل.
وعبثني الحماسة ولكني رأيته تنظر في ساعتها، وأحسست
أن معظم رواد المقهى الحاشد عادة بالناس قد انصرفوا

وسألتها كم الساعة ؟

فقلت - الحادية عشرة - مثل هذه المفاشات سكر ن
تستمر حتى الصباح .

وأحسست في وجهي شعور عريبا بالحرج أو الرعدة في
شيء، تتردد في أن تقوله . ولكنها التفتت إلى فتلة هل يدوب
عشانك ؟

لا ..

هل تدخل لتناول العشاء في الدحل ؟

وشعرت بالحرج الشديد لقد درست قلعة «الدوسيني» بدقة
وعناية وكان العشاء أو الطعام اخر شيء أفكر فيه . إن عشاء
أو عداء واحدا سيقرب كل « لتخطيط » الدقيق الذي وضعته
لإقامتي في روما . وحسب الحطة كان العشاء دائما رخيصا وجيدا
وبعض قطع من اللحم الدرد كنت أشتريه من بقال قريب من
الفندق، وأكلها في لبحرة، ولم أدر بماذا أرد عليها ولكني
استنجمت شجاعتي وخيالي .. وقلت

إن تجرئتي في باريس، قد أقنعتني أن الأكل لحيد لا
يوجد إلا في لطاعم الصغيرة الأماكن محروم ديكور ولدا لا
تكتشف مطعما إيطاليا صغيرا .. نأكل فيه طيف يطاب

«الاسباجيتي» مثلا ؟

وبظرت إلى نظرة عربية لم تكن نظرة المثقفة المتعالية التي كانت تتحدث بها طوال المساء وقالت

- ما مشاريعت الليلة ؟

تتوقف على مشاريعك أنت ؟

- هل تريد قضاء «وقت طيب» .

«وقت طيب»؟ لقد هدمتني الكلمة.. ولأول وهلة خيل إلى أنسى

لم أسمع جيدا، أو أنهم لا تفهم معناها بالإنجليزية فقد قالتها بالإنجليزية وهذه عادة كلمة «ساعات الهوى» وسألتها .

ماذا تقصدين ؟

- وقتا طيبا.. يمكن أن نذهب إلى شقة أنيقة قريبة. ولن

يكلفك هذا أكثر من ثلاثين ألف ليرة ..

«يا ربااه لقد أحسست كأن سكيننا حادة نفذت إلى قلبي أو

كأنني سقطت من برج على ارتفاع ألف قدم.. هل يمكن أن تكون هذه بغيا؟ كل هذا الحمال وكل هذا الزكاء في «بائعة هوى»..

وبظرت إلى وجهها. وبدا لي أن كل جمالها قد غاض وأحسست أننى أرى تجاعيد في وجهها أحفاها المكياج، وخطوطا تحت عينيها أخفاها الحديث وأصبحت كلها شيئا رخيصا. بارداً

كالطعام الأمريكي المحفوظ في الطبخ، بلا نكهة.. كالشراب
المعقم، بشعا كصورة «دوريان حراي»

نظرت إلى وهي عينيها برود وعدم كثرات وقالت
هذه هي الأشياء التي قت لك إسي أعصها ولا يصح أن تكون
واردانت نظرتي برودا وعدم كثرات وقالت
- هل قطعت برأي ؟

وتصورت أنها قد أنفقت اللية هي لحدث معي، وأنها قد
أضعت وقتها عبثا وأن الوقت قد يكون متأخرا لكي تبحث عن
أحد آخر، وربما كنت جائعة حقا .

وأخرجت عشرة آلاف ليرة وقت لها
- أستطيع أن أقرصك هذه.. إذا كنت محتاجه إلى نفود .
وتربيتها في لعد.. إنني متعب بعض الشيء فقد قضيت النهار
كله في الطواف وأريد أن أنام مبكرا وأستريح .

ووضعت النقود على المائدة وقالت
- لا.. لا.. لقد سعدت جدا برؤيتك ولحدث إليك وإلى اللقاء
وقامت إلى لرهيف.. واستوقفت «تاكسي» واختفت .

ونظرت إلى كراسي المقهى الفارغة، وإلى الفياهيتو الذي
فيه الحياة، وأحسست بوحدة ثقيلة .

○ القمص سرجيوس

كان أبى قسيسا وجدى قسيسا وجد جدى قسيسا ولهد
كان طبيعيا أن أنتظم أنا الآخر فى سلك الكهنوت وكنت أستمع
إلى القسيس والوعاظ الذين يظلمون القرى واملأ ويحليون -
أحيانا ألب الناس.. فأحلم أن أكون مثلهم .

وفى المدرسة الإكليريكية بالقاهرة ذات أمارس هوايتى
وقدرتى على الخطبة، وكنت نظم التعليم فى المدرسة تقوم على
الأساليب الكنسية القديمة ولذلك اتخذت من موضوعها مادة
الخطبى وجعلت أطلب برصلاحيها لكنى لا أستهم بالجمود و أرجعته
وما استثت هذه الدعوة أن انتشرت بين الطلبة ورسخت فى
نفوسهم فمعدوا جنودا عاما و تنهوا فيه إلى انحد عدة
قرارات حملتها بنفسى إلى رجال المدرسة وكان يصيبه ارفض
ولم أملك إلا أن أدعو الطبة للإضراب

وهكذا ومع أول إضراب فى ذريح مصر وكان ذلك

سنة ١٩٠٢

وبعد إضرابنا بقلب اضرب عمال السجاير ذلك لإضراب

الذي يؤرخون به حركات الإضراب والعمال في مصر، ثم نشرت
أنا سلسلة من المقالات في الصحف المصرية شرحت فيها
أسباب الإضراب في المدرسة والأسس التي قام عليها نهالت
الثورات والاحتجاجات على المدرسة، الإكليريكية وتطالب جميعا
بتحقيق مطالبها

وبهذا سويت لسالة وظللت حتى تخرجت في المدرسة وأردت
أن أشتغل وأعضا عدي و لكن رجال الكنيسة رشحوني لكي أكون
قسيسا هطلو مني أن أروح متزوجت وكنت وقتئذ في الحادية
و العشرين من عمري ومنذ ذلك اليوم - أي منذ خمسين عام -
وأنا أعيش مع زوجتي التي أحببت منها خمسة بدين وخمس
بنات .

ورشحت قسيسا في ملوي وبدأت أجهز بر في مند المدرسة
وهي الإصلاح واعتبر بعضهم هذه الآراء اجترأ على التقاليد
الكنسية فاعتزلت خدمة الكنيسة وعملت كواظ عادي

وفي كل مكان كنت أحد تائيدا وحماسا شديدا من الناس
واجد معارضة وثقمة وسخط من رجال الكنيسة فسافرت إلى
لسودان وقمت بجولة كبيرة في ربوعها، واستطعت خلالها أن
أكتسب محبة الجميع، ولهذا قصة. تصادف أنني سافرت إلى

السودان على أثر مصرع بعرض على وكانت العلاقات بين المسلمين والأقباط متوترة بسبب هذا الحادث، وحتى النادى المصرى لذى كان رمز وحدة المصريين فى لجوب انقسم أعضاؤه على أنفسهم للسبب نفسه وتكون ناد آخر أطلق عليه «المكتبة القبطية» .

وذاذ يوم دعيت لإلقاء محاضرة فى هذه المكتبة وأدبع ان عنوان المحاضرة سيكون «تفوق دانبل» وفى قاعة المحاضرة وجدت جمهورا عفيرا.. كان عدد المسلمين فيه أكثر من عدد الأقباط وهما رأيت الفرصة سانحة فقلت موضوع المحاضرة إلى «عيشوا بسلام» وكان لهذه المحاضرة أثر كبير فى لفضاء على الحلاف وقد هنأتى عيها رجل الدين المسمون وهى السودان أنشأت مجلتى «النارة المصرية» وحفلت مبه متنبها لأرائى وكانت هى والخطب والعضات التى ألقها مثار إعجاب شديد وجدل ونقد. وفى ذاذ يوم سندعانى «مستر مور» مدير «لخرطوم» وقال لى «إن الحاكم العام للسودان يطلب إنك ان ترحل فى خلال أربع وعشرين ساعة» .

فقلت له : «أنا لست فى لندن حتى يأمرنى الحاكم العام بمغادرة البلاد فى أربع وعشرين ساعة، أنا ه فى بلادى

وليرحل هو إذا شاء» .

فقال : «لا تخرجني ب سرجيوس وبعد الأمر» .

فقلت : إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها تنفيذ الأمر هي أن تضع القيود في يدي وقدمي وتخرجني من ملادي في لحوب فسرا حتى أشهد العالم على استئذانكم .

وعند الرجل لي ثلاثة فقلت له : نسي أريد أن أعرف السبب أولا فقال لي : «لوقنت لك السبب هو تعطيتي كسرة شرف نعد فيها بمغادرة البلاد»

ولما وافقت قال لي : «أنت بصيعة تنزع لي الحرية ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف وبهذا عين صيعة لا ثلاثنا وسوف نثعب ونثعب» .

وعدت إلى مصر سنة ١٩١٥ وقبعت في جرج

وظلت بعيدا عن القاهرة حتى شب أولادي فارت أن كحقهم يلد رس واضطرت لسفر إلى العاصمة واخترت لقيامى مسكنا في حي الفحالة وظلت حياتي موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة حتى أحد أيام سنة ١٩١٩ . وكنت قديما في بيتي عندما سمعت ضجيجا وصخبا في الشارع ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف «يحي سعد يحي الاستقلال» ولم ساكت عن السبب قيل لي إن المستعمرين قد اعتقلوا سعد زعزل الذي

طالب بالاستقلال التام .

وهنا تدفقت الدماء حارة إلى رأسي وكثما براكين لدينا كلها قد تعجرت فأسرعت إلى الشارع وانضمت للمنظاهرين وسرنا بهتف وبصيح حتى انتهت بنا المظاهرة إلى الأهر. وهي تلك لفترة كان خمس الثورة المصين ولهدا ألقى به عصا لترحال وطلت قرية ثلاثة أشهر ألقى كل يوم ما لا يقل عن خمس خطب في الموظفين بعد انقضاء الصوات الخمس، وكنت قبل أن أنهي الخطبة أذكر كلمات الإخيري الذي هددني من السودان وأقول لنفسى «من يكره الحرية أكرهه ومن يحاربها أحاربه، ولم أترك شرعا أو مسجدا أو كنيسة إلا وخطبت فيها دعيا لتعبئة الشعور ضد أعداء البلاد

وحتاج لوفد للعمل وصحبت فتح لله بركاب هي حوة بين القرى والكفور، وكنت أضل أحطب هي أهلها حتى يصل المستمعون إلى مرحلة التصحية فأشير إلى فتح لله بركاب، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبة القومسيونية فيفتح أمام المستمعين وإذا هي تمثل في لحظات بالأمول .

وذاث يوم كنا في ميدان الأوبرا وكان أكثر من عشرين ألفا قد وقفوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير يستعدون للاستماع

إلى خطاني وصعدت على أكتاف طالين وفي وسط هذا الصمت
لرهيب بدأت خطاني قائلا اهتموا معي «يحيا الإنجليز»
وبنت الجمع الحاشد لهول المفاجأة وعدت تقول.. لن أهبط
حتى تهتفوا. «يحيا الإنجليز» هتفوا و استمرت قائلا
«يحيا الإنجليز الذين استطاعوا بظلمهم واستبداهم
وفجورهم أن يجمعوا ما هذه الكتلة الموحدة المقدسة الملتزمة»
وصفقوا تصفيقا هم الأذان .

ومرة أخرى كنت في السرايق الضخم الذي اقيم لتكريم
سعد بعد عودته من المنفى، وكان رعيم الوفد في أوج عظمنه
وكنت قد ذهبت إلى السردق بعد جفوة بيني وبين فتح الله
بركت يا بشا وأحدث لهما هير تماذي سرجيوس سرجيوس
سرجيوس.. ووقف سعد رحمه الله قائلا فليسمعنا خطيب
الثورة كلمته .

وصمت الجميع. ونعت أحطت فقلت «والله إنك لجنون يا
سعد» وبنت الجميع ولكني استمرت والله إنك لجنون يا
سعد إذا تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى
وتملك كل شيء ولا تملك انت شيئا ثم تنصبر عليها
وفي كل مقطع كنت أكرر «والله إنك لجنون يا سعد»

وهي نهاية لخطاب قام بسعد من مكانه و جتفسي قائلاً
مجنون والله.. ياسرجيوس.. وضجت الجماهير بالهتاف
والتصفيق .

ودت يوم استدعاني «كيي نويد» مدير الأمن العام وقال لي
« أنت عدو الأكبر » ويت ليلتند في ثكنات قصر البيل برين عرفة
جمعت في أركانها كل أنواع السعوض والبق والبراغيث والفئران
وهي الصباح قتادسي إلى أحد المعتقلات في رفح وكان يرطني
فيه النقراشي والقاياني ونوشادي والخولي وكثيرون غيرهم.
هناك عكفت على قرنة لقرن وعلى درسة لتفسير كم قرأت
لرازي والنسفي والبيضاوي وتفسير الحلايل والمثل والنحل
وغيرها .

ذات يوم كنا نقف مع صابط المعتق فقال «إن المصريين
المتوحشين قتلوا جنديين بريطانيين اليوم» ورد عليه أحد المعتقلين
قائلاً «هذا أمر مؤسف»

فسدعت أنا قائلاً إن قتل جنديين بريطانيين بعد وحشية
وقتل الصينيان والغبان المصريين وحصدتهم بالمدايع الرشاشة
لأنهم يطالبون بالاستقلال.. هل هو في نظركم مدية ؟
وحقد عسى الضابط الإنجليزي المتعجرف ولد ظلت هي

لمعتقل حتى أطلقته وحنّت بمقابله «وصيته» إلى القاهرة وكان ذلك في سنة ١٩٢٠ .

ودعت جمعية التوحيد القبطية إلى مؤتمر للإصلاح القبطي وهو الوزير الحساس الذي يدفعني لمسيان كل شيء، معقد المؤتمر وجاهزت فيه بكل الآراء الثورية التي كنت أراها في مشاكل الإصلاح.. وإذا بقرار يصدر بحرماني من الكنيسة والحرمان معناه الإعدام الأبدي في المسيحية ولم يكتف بالقرار بحرماني فقط وإنما نص "يصب على نظفي من القاهرة إلى بلدي جرحا وربما سيم «دشا» وزير الداخلية وقتئذ تنفذ أمر ليعي وقال «كيف أنفي رجلا وصلتنى ستة زكاتب محتاجات من أجه من المسممين والأتباط» .

وأرسل بعضهم إلى الحكمدار رسل «باشاء» يقولون إن سرجيوس سيقبى عظمته عدا في كنيسة وهي لكنيسة التي بنيتها بنفسى سنة ١٩١٥ ومازالت حتى لأن منبري الذي لا أكاد أحرم حتى أعود إليه وإن هذا سيثير قلقا شديدا فاستدعاني رسل «باشاء» ولما دعيت إليه قال - يا سرجيوس أنت محروم من الكنيسة فلا تذهب للصلاة أو العظة .

فقلت له

- أريد متعمكنا من الترجمة من العربية للإنجليزية حتى
يترجم لك بيتا من الشعر .

ولما جاء المترجم قلت له ترجم هذا البيت .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عدر عيك إذا هملت مضيم
وتأملني رسل متعجبا وقد
ماذا تعنى بهذا ؟

- أنت تقول إسي محروم من الكنيسة وتسمى أنك أيضا مثلي
محروم منها.. وأن ملكتك محرومة هي لأخرى بل كنيسة
كلها محرومة، وستظل حتى تذهب أنت وهم جميعا حفاة إلى
روما لتطلبوا العفرن من يتقبل منكم، 'لا تعرف يا «رسل» أن
هذا الحرمان قائم ضدك منذ هنري الثامن ؟
واستلقي رسل على قفاه من الصحك ويأدي أحد ضياعه
وقال له

- فيليس.. غدا تصحب أربعين جنديا لحراسة سرجيوس
حتى يفرغ من صلاته وإلقاء عظاته

وجاء «فيليس» في اليوم التالي هوحد كل الشوارع المؤدية
للكنيسة مسدودة بكتل بشرية متراصة ولم يستطع أن يجد

نعمه طريق إلا بشق النفس وحيث التفت إلى قاتلا

- ياسرجيوس أنت مارتى لوثر مصر .

وظلت في كنيسة مدة عام أعانى قرار الحرمان وبسبب
الكنيسة هي لأخرى حتى تنزعت منى، ولكننى لم أبأس وذهبت
إلى الفحالة واستأجرت فناء كبيرا صنعت فيه المقاعد وأقيمت
حول سوراء واتحدت منه كنيسة ومنبرا للعظات وكان الذين
يهرعون إليه يفوقون عدد الذين يذهبون إلى عدة كنائس
مجتمعة .

وظلت في كنيسة الجديدة حتى سنة ١٩٢٥ حينما أعيد
لكنيسة الأولى وبعض الوقت فقط، لأنه صدر ضدى قرار
حرمان ثان سنة ١٩٢٦ وعدت مرة ثانية سنة ١٩٢٧ .

وفى سنة ١٩٤٩ رأيت أن أخوض معركة الانتخابات
والتفت جماهير الحى حولى وكان شعارها «من غير هوس
ياسرجيوس» فلم يكن معى مليم أشتري به نصف صوت وكاد
يبيد لناس أن يكسبني المعركة لولا أن طلب إلى النحاس أن
أنازل عن لدة ليرة لإبراهيم فرح ويحق نكرياسا وكفاحن القديم
فتنازلت وأرسل لى لنحاس خطبا قال فيه «لقد أضعت موقعا
مشرفا إلى مواقفك الوطنية لسابقة» ووجدت في الخطاب

ترهيبية وتكفيراً عما ارتكبه لوعده في حقى .
 والتفت إلى الإصلاح لقطبى ثم صدر قرار هزيمات آخر
 فرفعت أمرى إلى القضاء العادل فذاعبني إلى الكنيسة.. و لبقية
 تلتى !
 لن أكف مطلقاً

◀ الأب عيروط

كان يحلس كل يوم ليرقب العمال وهم يصعدون «السقاير»
وينزلون، فقد كان أبوه مقاولا كبيرا وكان معه أن يكون مثله
مهندسا ومقاولا ورجل أعمال و.. ١

وثبت فشينا أخذ الفعلة يستولون على تعكيره وبدأ ينتعهم
هي غدواتهم وروحاتهم، وأخذ يمعن النظر فيهم خلال العمل
والطعام والفراغ واستقرت في نفسه صورة عميقة لكنها نشعه
مخيفة للحياة والناس .

استيقظ أهله ذات يوم فلم يجدوه ووجدوا منه حصا.. لقد
سافر بعيدا.. وإن يعود . إنه لا يطبق الحياة مادام لا يستطيع
إلزاء إصلاحها شيئا .

وفي فرنسا خلق لباسه الفني.. وأمال أبيه وأحلامه هي
البناء وارتدى مسوح الزهقان ليتجرد من كل شيء، ويعرف ما
يستطيع وما يريد.. وطاف بالأديرة والجامعات ودور العلم اثني
عشر عاما .

ودق جرس الباب ذات يوم وفتح أبوه ولم يصدق. لقد عاد .

وكان هي إحدى يديه إحيين وفي الأخرى سحر حاد عن
«الفلاح» .

وبدأ يعمل ..

كانت حوله بسيطة و صحة ولكنها خضرة كأي شيء بسيط.
إنه يريد أولاً أن يمزج الدين بالوطن وبالمجتمع، والأقلية بغيرها
من الأقليات مزيجاً متناسقاً متوازناً.. إنه يرى أن المجتمع ككل
للمسقى يحتمس التباين و لتنوع ولكن لا يحتمس العشاز. وكان
كاثوليكياً سوريا الأصل من الأقلية التي كانت سطر دائب إلى
هرنسا كخميتب و رعيتها ولدا أزد. أن يصهر هذه الأقلية في
بوقة لوطن .

كانت صيحتها الثانية للمسيحيين من بني دينة لكي يكونوا
مسيحيين لا لأنفسهم. إن المسيحية هي التي دعا إليها بطرس
الرسول حينما قل

«ليكون لخط بينكم وبين الله حصا عرضيا يتصل بالغير
لاخطا أفقي يذهب رأسا للسماء» وإن لمسيحي لخط ليس هو
اللاوى الذي مر بالجريح وسار ولكنه المسمرى الذي بدا إليه
وصعد جراحاته وصب عليها زينا وحمرا وحمه هي دابته إلى
هدق واعتنى بأمه. وفي القد أخرج يذرين وأعطاهم لصاحب

الفندق وقال: اعتن مأمرة ومهما تتفق فوق هذا هنا أدفعه لك عند عودتي» .

* * *

وصحب الذين امنوا به شاميا وشبابا وسار بهم إلى حيث بدأ.. إلى بيموع لشقاء وتقية البشر.. إلى الريف «إيا نخاف أن يقرب هؤلاء الناس لأننا نخشى أن يفهمهم فنحبهم ونحس وزنا نحوهم، وهكذا نعيش عميانا أمام الكون الزاهرة الكمية في أعماق هؤلاء الناس. ووجهته حقائق الإصلاح صلبة جامدة مرس» إن ما يحتاج إليه مجتمعنا إنما هو إعادة بنائه من جديد.. لأن البناء القائم متداع ومنهار ولن يصلح فيه الرق والترميم ولن يصبحه أيضا أن يهدمه بالعنف والثورة. ولكن بأن نوقف قوى الساء والتطور . وبأن نخلق جيلا جديدا»

وحينما تلمس مائة لحيل لحديد وحدها هي الفلاحين أنفسهم منذ خمسين عاما كتب عالم أجنسي هاش في مصر يقول.. إن حلول المشاكل المصرية كمنة في التربة المصرية وهي نفوس المصريين أنفسهم ..
ومن هنا.. بدأ جهده الأكبر

«إن الفلاح الصغير يحفظ في أعماق روحه تراثا إنسانيا رائعا هو محفلات الحصاد القديمة بكل ما عتورها من عقائد وحروب ومجاعات... ومن انتصارات وأساطير وأثار خالدة. كل هذا يحفظه الفلاح الصغير في روحه الواسعة اتساع العالم. وإن سكوته وهدوئه وسليبيه لدلائل على غنى روحه وعمقها

.. وتعلم الآن أيضا أنه من هذه الروح لابد أن تولد مصر الجديدة.. فإن الفلاح يتعلم الخلق منذ حداشته ولأنه أن يفتح روحه وعقله ليحس بلذة الخلق والابتكار ومهارته وأصالته ومحدد العريق. كبر ينبوع متدفق لهما على

أن تعطيه الفرصة ليعبر عن نفسه وعن مواهبه هذه .. وجمع الأطفال من هنا وهناك ولكنه لم يعلمهم القراءة والكتابة.. لأنه لم يريد لهم أن يكونوا أفندية أو شيوخا، بل أراد أن يحررهم من الخوف والحبس وأن يحولهم من «شباح إلى نعيم» .

وكانت وسيلته بسيطة «الحبة» وكما قال المفكر الفرنسي يوسوف «لا معرفة بلا محبة» .

لم يكن أعوانه مدرسين إلزاميين لا يربطهم بالمدارس والصغار سوى المرتب، وإنما كانوا مثله حملة مشاعل يؤمنون

برمالة هي تفسير الحياة و الدين لهؤلاء الصغار بحيث يؤمنون
بالحياة والدين و المستقب و يصنعونه بأنفسهم لأنفسهم
وحركت حدة الخردل الحبيب.. ومن فصل واحد قامت ١٢٨
مدرسة و ١٧٠ مبرست و ١١٠٠٠ برعم صغير يتفتح للغد والبناء
كلهم أو جلهم مسيحيون كاثوليكيون ولكنهم مصريون أولا .
لقد شيد الراهب الشاب بناء كبيرا أصخم ولا شك معا جم
له أبوه .

وكانت قصة الأب عيروط وملاحيه الصغير

◊ مصري من السوريين

كان أحد الدين علمون مصر.. ربما كما لم يعلم أحد منه.
 كان الدرس عادة يوم الجمعة. وكنا نذهب معه إلى حي الحسين
 ليشترى لنا اللحم من جزار يتعامل معه منذ أربعين عاما. ثم
 نذهب إلى سوق الخضار في باب السوق ليشترى لخضار من
 خضري لا يكاد يراه حنى يسلمه توليفة متقلبا عليها من أربعين
 عاما.. ثم نحمل كل هذا ونذهب إلى مصر الجديدة ونشترى في
 الطريق الفاكهة من فاكهاني «حصر» له ما لا يبيعه لأحد غيره
 وهي السميت يخلع سترته. ويرتدي «لميلة» ويدخل عاريا إلى
 المطبخ.. كان قد عاش عشر سنوات كاملة في باريس «حبيب
 كانت باريس هي باريس» وتشرب كل شيء فيها عموما وفيها
 وسحره.. وأيضا مطبخها «الأكل في باريس فن.. لا تعرفونه
 يا أكلة الفتة» ثم يخرج طبق أو طبقين.. لا يؤكلان إلا في مطعم
 أو مطعمين في اللوكسمبورج أو لشانزليزيه
 وبعد الغذاء نشرب الشاي «المنعم» كما لا يمكن أن يصنع
 غيره.. ولندخن سيجارا فائرا.. لا يوجد إلا عنده ويستغرق في

مناقشة طويلة.. قد تكون حول الشعر العربي القديم الذي يحفظ أكثره والذي نشر أهم «عيونه» وقد تكون حول التصوير الإيطالي في عصر النهضة أو التصوير الفرنسي في القرن التاسع عشر الذي يملك منه مجموعة ثمينة أنفق ثروة طائلة ليحصل عليها .
ثم يبدأ الدرس

وتتضمنه حينئذ شخصية أخرى. وتحل فيه روح شابة ولا يتكلم، بل يزار

«أنتم جهلة جهلة لا تعرفون شيئا . كل التاريخ الذي يدرس لكم.. وكل الكتب التي تحت أيديكم كذب.. هراء كل هدفها شيء واحد هو ألا تعرفوا تاريخ مصر» .

«لقد قلت لسعد زعول سنة ١٩١٩ - وأنا سكرتير صغير له
إذا كنت تريد للثورة أن تستمر فلابد من السلاح أو الحماس أن
تكتب تاريخ مصر»

«وفهمها سعد ولم يسخر سعد. ولكنه قال لي.. ما تكتبه يا
فالح حاكيتبه أنا» .

وهو قد فعل وكتب تاريخ مصر.. ولم يكن تاريخ .. لم يكن
سرد أحداث أو أشخاص ولكن شعرا وغزلا .. مصر كانت روحه
وعقه وكل نفسه كانت عشقه وعلمه وعبادته ولهذا كتبها لا كعالم

ومؤرخ لكن كناسك صوفى يبحث عن نفسه . وعن وطنه . حيث
سكنية روحه ' .

وأول كتاب قرأته له كان «بدور الوصية المصرية» وحيثما
فرغت منه كنت أستغرق فى مشوة وطمانينة «الذى وجد أرض
ليقف عليها .. هذه إذن مصر لتي أرابوا تشكيكنا فيها وهؤلاء
هم أسلافنا الذين شوهوا قصصهم وهذا هو التراث الذى
سنبنى عليه» ' .

وقللت زمنا طويلا أقرأ هذا الكتاب مرة كل عام على الأقل.
بل كلما هبت نوبات القلق أو التشاؤم كنت أتشبهت به أو أقرأ
فصيلا من فصوله.. وأرى مرة أخرى «صورة لقواء» الذى كان
مقره باريس والذى كانت مهمته تزويد العوانى وصورة
الجوارح التى تقضت كالطوفان ليقطع كل منها «رطله» من
الحم. وصورة «مفسدو هليس» دى الدنة وجه وخطواته إلى
الهاوية. ثم صورة الأرواح الطيبة الواعية وعيا لا يصدق سوى
من يقرؤه.. وهى تجتمع ثم تتطلق ثم تهب. لتمنع الكارثة . ثم
الصورة التى لم يقدمها غيره ولم يقدمها أحد مثله صورة
الفلاحين الذين كانوا جيش الثورة والذين لعبوا لأول مرة دورهم
فى صنع التاريخ.. من ذلك التاريخ ولدت الوطنية المصرية

مؤسسة واعية.. وطنية صباط ومتقنين وفلاحين .

وبحثت عن كتبه كلها بعند وقرأتها وبعد أن يفرغ الإنسان منها وبعد أن يقرأها مرة واثنين لا بد أن يسأل «لماذا لم يكتب هذا الرجل 'ضعاف هذه الكتب'» .

مسألة واحدة فقط كنا نحذف معاً فيها ولا تقنعت ثورته وإفعاله. أنه كتب كل كتبه بالعربية ولم يترجم شيئاً منها إلى العربية وكلما أثرتنا الموضوع رأى .

«نعم أكتب بالعربية لكي يكتب ما تريد ولكي أقرأ.. من الذي يقرأ هنا.. ومن الذي يقدر. وأنتم رأيتم أنفسكم ما كتبه أساتذة التاريخ في أرقى جامعات العالم.. وما كتبه النقاد في المجالات الكبرى. هذا عبدا الحسد والحقد والعيرة» .

وكنا نقول له «هذه كتب لمصريين ليقرأها المصريون لا العلماء في الجامعات الأجنبية». ولكن آخر ما تنتهي إليه مع هو «ترجموها أنتم.. أنا كُتبتُها»¹

وطال جلسنا إلى المكتب ووضعت أمامي «نشأة الوطنية المصرية» وشرعت في ترجمته .. لا شيء يمكن أن يضاف إلى المكتبة التاريخية أو المكتبة الأدبية العربية . مثل هذا الكتاب¹

ومند يضع سنوات نصب على درسة جديدة «هى العرب فى أفريقيا» وأعلن لنا أنه بعد عشر سنوات سيخرج كتابا غير كل ما كتب عن دور العرب فى أفريقيا . وبعد قليل قال إن الموضوع قد اتسع وإنه سيكتب فقط عن العرب فى «الكونغو» مع مقدمة طويلة .

وظللنا نسااله عن الكتاب ولكن فى كل مرة كان يقول: الموضوع اتسع أمامى ستة أخرى ثم يشور «مدا تطبور» نحن معيد اكتشاف أفريقيا من طرق جديدة» .

ومند أيام وبعد عيمة طويلة لم نره فيها . ون حرس لتليفون وكان مفعلا ثائرا ثورة عارمة

قل لى كيف يمكن أن أقابل جمال عبد الناصر؟ لا احد فى هذا البلد يستطيع أن يفهمى سواه .

وكانت هذه أمنية قديمة له . وكان يقول لنا د ثب «إن عبد الناصر يتصرف وكأنه قرأ كتفى كلها.. لا أحد يمكن أن يعرف مصر.. كل شىء عن مصر.. هذ، بغير قراءة كتفى» .

وسااله هل هى الأمنية التقيدية ؟

- لا.. أريد أن أسافر.. منذ ثلاثة شهور وأنا أريد أن أسافر وقد أرسلت إليه خطانا ولكن لم يصلنى رد .

والتقينا.. وكانت معه صورة الخطاب الذي أرسله «أعلى كبير
أن ألقى العون منكم للتمكن من السفر إلى باريس وقضاء سنة
كاملة فيها لطبع الكتاب «العرب هي الكونغو»

وستحتاج تكملة البحث إلى ثلاثة أو أربعة أشهر أنقضيها بين
سجلات وزارة خارجية باريس ولندن وبروكسل كما أن هناك
بعض الكتب والمجلات التي لا توجد إلا في مكتبات أوروبا
لعدة ومع تصالي المستمر بمكتبات أوروبا العامة لم أستطع
الحصول على كتاب مكتوب باللغة السويدية ومؤلفة «سليماف»
سويدي وهذا الكتاب لم يستعمله أي مؤرخ بلجيكي أو أوروبي
سحجة جهل اللغة السويدية ثم الاستعانة بمترجم سويدي. وقد
طلبت أخيرا من بلجيكا إرسال مجموعة مجلة الكونغو وهي
المجلة المهمة الوحيدة التي تتفحصني، فأجابني صاحب المكتبة
بأنها نادرة الوجود وأن ثمنها ثلاثة آلاف حسيه ولذا لابد من
الاطلاع عليها هي مكتبة باريس أو بروكسل

وجلسنا نفكر طويلا . ثم قلت للدكتور محمد صبري
السوريوني «منجرب طريقا ربما يكون أسرع وأفضل» وسوف
يشور كثيرا هذا الصباح. كيف افعل هذا.. هذه طريقة صحفية
ولست علمية أكاديمية.. وهو لا يحمل حنا كثيرا للصحافة

◊ قنطرة الذی کفر

هي تلك السنين كان الدكتور مصطفى مشرفة قد أخذ يدرس الاشتراكية وبدأ يتحول إليها.. بنفس لعمق والصدق لدى يمارس به كل شيء.. وبدلاً من تحرير العمال الإنجليز قرر أن يعود ليشارك في تحرير الفلاحين المصريين .

كتب قصة باللغة العامية وذهب إلى أحد لماشريس لكي ينشرها ولكنه رفضها . وهذه قصة حدثت منذ أربعين عاماً وستظل تحدث ولكنها بالنسبة له كانت نقطة تحول كبرى في حياته

كانت الكتابة باللغة العامية هي رأيه رسالة وطنية لأنه كان بن جيل ثورة ١٩١٩ وأحد شباب الجهد السري فيه . وأن اللغة العامية هي لغة الشعب، لغة «العامه» ولأنها لغة التي تعبر عن مشاعر هؤلاء وأحسبهم وخلعت أنفسهم الدقيقة وهي لهذا لابد أن تكون لغة الأدب أو على الأقل أن يكتب بها أدب . وبك إذا ما كان هذا لأدب شعبي مصري صادقاً خاصة إذا كان مصرياً مائة في المائة .

لأن المصريين هم سكان الأزقة والحارات وهم الذين لم
يتعمدوا لغة الصاد وهم الذين أحسوا وتألوا وثاروا.. تلك الثورة
حملها على أكتافهم «عامة الشعب» هم الذين أطلقوا صيحة
وهتاف «يحييا الوطن» وهم الذين اندفعت جموعهم كالطوفان
في المظاهرات . وهم الذين تساقط شهداؤهم في موت زؤام من
أجل الاستقلال التام .

كان هذا أجمل ما في حياته وأثنه ولهذا كُتِبَ باللغة التي
لا بد أن يكتب بها.... ورفض .

وبطبيعة الحال العفيف أقصى حدة وأقصى صف . تحد أعرب
قرار يتحذه كاتب رفضت له قصة وهو أن يعاير مصر نهائيا .
أن يترك السد الذي أحبه بكل قدرته على الحب والذي قتل من
أجله والذي تعرض للموت مرات عديدة من أجله.. وقرر أن
يهجره لا هجرة جبرية أو مؤقتة وإنما هجرة عقلية وروحية أن
يقطع اتصاله العقلي والروحي بها وأن يبحث عن تراث آخر ولغة
أخرى.. أرقى.. ينتهي إليها .

واحتار أن يذهب إلى بريطانيا، أن يتعلم لغة السادة وأن
ينفذ حتى آخر سر من أسرارها وأن يكتب بها كما يكتب أي
نجيزي .

ولعله أراد أن يمسح الإهانة والدلة العكسية بالحروج بهانينا
من ثقافة الأمة الفاشلة المستعمرة وبالدحول منتصرا في تراث
الأمة المتوقعة المنتصرة .. يومها لن يصير أحد عني رفض شيء
يكتمة وسوف يعبر عن نفسه ويحقق ذاته كف بشاء ما دم لم
يستطع أن يحقق للأمة «التعيسة شحصبها» .

وفي بداية الخطة فاجأته أولى الصدمات والمسي التي لم
تقطع حتى ليوم من حياته والتي يقسها دائما بانتسامة
«كسخافات» عرضة لا تؤخر شبت أو نعوقه^١

وأصيب بشلل الأطفال . ومقالة شديدة مه وبام على صهره
بضع سنوات صويلة . وتنفق بين مستشفيات لندن العفيرة وخرج
من المحنة يسير على عكزين يلازمه دائما .

ولكنه وهو على سرير المرض وحيدا مهددا بالموت أو وهو
يسعى متوكئا بين جامعات بريطانيا ومعاهدها لم يعقل عن
الهدف . ولم تنش عزيمته حتى حققه . صبعا بعد كف ح وعناء
طويل .

عرف اللغة والأدب والتراث الإنجيزي كف لا يعرفه كثيرون
من الإنجليز أنفسهم وكما لا يعرفه مصري قبله ، وأصبح يكتب
بالإنجليزية ، ويكتب لنثر والشعر ولقصص ولسرحيات وقبيلات

المجلات و الصحف والإذاعة كل ما يكتب واتخذ اسما انجيزيا وتزوج انجليزية بل حصل على منصب في إحدى الجامعات هناك لتدريس الأدب الإنجليزي، كل شيء تحقق وفقا للخطة .

ودات يوم جاء عميد الجامعة التي كان يعمل بها وقال له ماذا ينقصك.. لقد أصبحت هنا تماما ولا شيء ينقصك هه سوى أن يتم الشكل . أن تطلب لجنسية الإنجليزية .

وسوف تحصل عليها بلاشك وأن تكمل الشكل القانوني وسوف يسهل هذا، أن تصبح أستاذ كاملا ولم يحد ماعدا، وشكر العميد الذي كانت عنده الأوراق ليوقع وليصير انجيزيا شكلا وموضوعا .

وأخذ ينظر إلى الأوراق ثم شعر بتردد وتخايل ثم استيقظ في نفسه فجأة قلق عاصف وشعور هائل محيف ثم تجعدت يده وكأنها أصيبت نمل ثم استبدت به هذه المشاعر ولم يسترح إلا حينما ألقى بالأوراق بعيدا .. وخرج ولم يدرك أين يذهب ولكنه بعد سبب ذهب إلى أحد المشعوذين المصريين وكان يعرفه بعض الشيء وكان وسيما «طويل وأسمر وأنيق» كانت تعجب به الإنجليزيات ولكنه لا يقابل هذا الإعجاب بالمثل ووجدته يرتدي «السموكنج» استعداد للذهاب إلى حفلة ولكنه وجدته لدهشته

يرتدي «صديري» ربيعى تحت القميص وقال له «ده وصية أبويا .. راجل فلاح بينزل الغيط لسه كل يوم بايديه ورجليه وقال لى يا أبى ماتقلعش ده من على صدرك علشان ما تنساش أبوك وجدك ولا تنكر أصلك والصلك» .

وذهب إلى البيت وظل يعكر طوال الليل وكانت بداية معركة هائلة بينه وبين نفسه انتهت بقرار آخر هو أنه لابد من الرجوع إلى مصر. لن يكون انجليزى ولن يستطيع أن يكون شيئا آخر إلا مصرياً . وسوف يعود وسوف يكتب بالعامية وبالعربية. وأهم من هذا لن يهجر الشعب لأن الشعب ليس مسئولاً . سوف يقضى على الذين بمنعونه أن يحقق ذاته أو يعبر صبه

فى تلك السنين كان قد "خذ يدرس الاشتراكية وبدأ ينحول إليها .. بنفس العمق والصدق الذى يمارس به كل شئ" وبدلاً من تحرير العمال الإنجليز قرر أن يعود ليشترك فى تحرير الفلاحين المصريين .

ثم عاد ..

وأول مرة نزل على شاطئ بورسعيد بعد غيبة طويلة. اقترب منه شيال مصرى وقال له
- الحمد لله على السلامة يا بيه .

واحتضنه وأخذ يقبه ..

هين له أن الشيال يعرف قصته كلها وأنه مصر كلها .
واشتغل مدرسا في الجامعة.. وكنا نذهب إليه في البيت
لأبنيق الذي يسكنه والذي صنع أو صمم أشبه والذي رسم بعض
اللوحات التي تزين جدرانه.. والذي ورع حديقته، والذي اختار
الكتب المستقاة التي تبدأ أرفع مكتبته.. وكان كل شيء بهذه ملك
الناس جميعا .

وكان يرتكز على عكازيه ويضعل سيجارته ويصني وجهه
بالنسامة العنبة الساحرة ويبدأ يتكلم عن شكسبير . عن بيرم
لتونسى، عن الماركسية، عن الغابية.. عن الوفد أو عن السري..
ولكن كل أحاديثه لأبد أن تنتهي بالشيء الذي لأبد أن يحدث في
مصر والذي لأبد أن يكون نحن في مقدمته .

وكانت الحقائق التي يعيها لنا ترسب عميقة في أنفسنا
والعواطف والمشاعر التي يوقظها فينا تهزها وأحيانا تزلزلها
كان شيئا فريدا حتى بين القبة لنادرة من الأساتذة الذين
يعيشون مع الإنسان طوال حياته، وكان معظم الأساتذة مثل
الأفلام السحيقة والمملة ينسأهم الإنسان على باب الجامعة .
وذاذ يوم قال لي ولم أكن قد عرفت قصة حياته بعد

- احنا عاوزين نكتب قصة طويلة عن مصر

وقلت له متحمسا

- أنا أكتب بالفقر.. قصة حتحلى كل واحد هي مصر

بيكسف من نفسه، يشمتر، يقول ازاي أب عاش وكل الغلب ده

وكل الفقر ده عيش معايا .. لازم نعمل زمة ضمير لكل اللي

بيحكمونا.. ومستعبدين البلد .

وقال بهدوء التقليدى

أولا بول ماعندهمش ضمير ولا عواطف وهم وصلوا للحكم

عشان كده.. وبعدين لما توقط ضمير الملك فاروق خيعلن به..

حيثنازل عن أرضه للفلاحين . حيطرد الإنجليز.. حيممها

جمهورية.. احنا عاوزين نكتب قصة تخلي مصري يحب نفسه

ويحترم نفسه وبعدين ينتقم من اللي بيكرهوه ويحتقروه .

وبدأنا لقصة وكن مرجعا الأول ومصدر إلهام هو الصي

الفقير الذى كنت أسكن غرفة صغيرة فيه مع أحد الرملاء والذى

كنت أقوم له بمسح أدبي لسكنه وأحداثه .والذى كنت أحيها

أصحبها إليه ليشرحها بنفسه .

ولكن بعد قليل انضح أن مصر التي هي نفسه أعق وأخصب

من أي مرجع آخر.. وحينما كن يتكلم عن ثورة ١٩١٩ كنت كل

الصور والشخصيات تفرج حية مضطربة بالحياة وكأنها تحدث وتعيش الآن.. وقال لي ذات يوم

- مهم حيكت مش ممكن تكون زى الحقيقة. شعب كده بيعبر نفسه. روحه من جوه. ويتولد من جديد. علشان كده أنا خايف.. خايف تنتهى لثلاثة أسطر فى كتاب تاريخ .

لارم ترسم «لوحة فرسكو» كبيرة جدا علشان كل واحد يعيش الثورة دي مرة ثانية خصوصا أنتم.. جيلنا ابتدا وانتم حنكلو.. تعرف أنا ساعات أقعد أبصر فى وجوه لولاد فى المدرج.. واعتكر كل واحد صورة لواحد كنت اعمره.. وساعات أقعد أتأمل وأقول يا ترى مين فى دول اللي حيعملها.. مين اللي حيضرب الرصاصة الأولانية .

ثم عرفت قصته كلها.. ومزجنا القصتين والعصرين.. لأن مصر واحدة ومستمرة . واحترنا البطل.. أحد زملائه الذين تخلوا عن مصر بطريقة أخرى ويعمل بمهصب كبير.. وأعدنا «خلفه» ليكون رمزا لكل الذين فقروا إيمانهم ذات يوم بهذا البلد أو هذا الشعب أو الذين تخلوا عنه أو الدين هجروه روحيا أو جغرافيا . عبروا قنطرة الذى كفر. وعدوا، لأن جذورا عميقا خمسة آلاف عام من المجد والهزيمة تشدهم وتعيدهم كالصمان

الضالة. لينتابعوا الموكب .

وكانت أياما سعيدة حافلة، ولكن للأسف لم تستمر.. وقضت
ضرورات الحياة أن يفترق قلل أن يتم العمر ولكنه عاش تراثا
عزيزا علينا.. كلما تقابلنا في المرات القليلة التي كنا نتقابل فيها
حططنا بأن نتم العمل

وعدت من السفر لأجد لغة عني مكتبي فتحتها فإذا بها لفرط
الدهشة والسعادة بروفات قصة «فنطرة الذي كفر» كاملة وقد
أتمها وأرسلها لإبداء الرأي. كانت مفاجأة عمريتي بالفرح
ويسيل من الذكريات. منذ رفضها المباشر إلى تلك اللحظة ربما
كانت أطول رحلة قطعتها قصة لكرى تروى .

◈ حسن فتحي
المهندس الفنان

«رأيت أول قرية في حياتي منذ ثلاثين عاما وكان منظرا
بشعا ..»

ولقد كانت زيارة القرية منذ طفولتي حلما من أحلامي وكانت
كل أمنيتي أن أرى وأن أعيش يوما في قرية. وكان هذا مشكلة
من مشاكل أسرتنا تتجدد كل صيف ولا تنتهي إلى حل أبدا ..
كان أبي إذا أدرك أن نسيمه إقطاعيا يرى الريف محرو
مصدر للدخل وإيراد ويشعر بالشمز ز كسر وحتفد أكر
للريف ولفلاحين

كان تصويره لحث الفلاحين ولقدارة لريف والصعبة لحياة فيه
تفر بهاثيا من الحياة في الريف وكانت أبي مختلفة تماما
وكانت قصصها وحواديتها. وما ترويه لذ عن طلبة الفلاحين
وعن مروضهم وعن شهامتهم وعن جمال الطبيعة هناك تحفل
القرية أرضا من أر هي الحور وجنه من قصص اسسنداد. وفي
كل صيف كانت تنور المشكلة وتعتد .

في نقضي الصيف في الإسكندرية كب بريد أبي. أم بقصه

في العزبة كما تريد أمي؟ وكان أمي يتنصر دائما ولم يكن يرى
الريف إلا من نافذة القطار .

وباء اليوم الذي تضررت فيه من سلطة أبي.. وتخرجت
وعينت مهندسا في طلخا وذهبت لأرى عربتنا وأحقق الحلم الذي
عاش معي أن أعيش في الريف، الذي أحبه لأن أمي تحبه
ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى أحسست برعب وخوف
واشمزاز وكذت أعود هرب إلى مكان بعيد .

ويوم قررت أن أغادر وأهرب أحاط بي الفلاحون وأصروا
على أن أقيم بينهم يوما آخر .

وأقمت. وامتد اليوم بضعة أيام وأكلت معهم وشربت معهم
وذهبت إلى الحقن معهم. وتسابقت على الحمير والخيول معهم..
وجلست في الليل أستمع إلى غنائهم وأسمارهم.. وبخلت إلى
بيوتهم ورأيت القاعة والفرن والزينة والمضيئة والمصطبة،
وأدركت لماذا تحب أمي الريف ولماذا يوقط فيها كل حنانها
ورحمته، وصفاء نفسها

وبدأت أفكر في أمر آخر.. كيف نبني قرية أمصر؟ وكافحت
لأعثر على قرية أنبها وأقدم نموذجها.. واستطعت أن أجد مالكا
أعساني الفرصة وكلفني أن أبني عزبة له.. ومن هنا بدأت

تجربتي وحياة أملي ..

نعم لقد وجدت لملك يريدون أن يبنيوا حظائر لعلاحيهم لا
بيوتا لبشر وادميين، وهندسة بيت الإنسان تختلف عن هندسة
الجراج أو الحظيرة تمام، كما تختلف هندسة العش عن هندسة
معصر لتفريخ، لقد رأيت إسمانية الفلاح وامننت بها، لابد أن
أبني وفقها .

لكن من مالنا الحانية تولد رائت فلسفنا اندافعة، اليس كذلك

- نعم ..

- لقد اكتشفت اكتشافني الأكبر خلال اسعراضي وبفدي
إلى داخل بيوت الفلاحين وهو أن أحسن مهندس ريفي في مصر
هو الفلاح نفسه، ومن خلال آلاف السنين وملايين المساكن التي
بناها والتي لاتزال وسنظل دائما الحلول الوحيدة والصحيحة
وبدأت أنرس تراثنا المعماري الشعبي والرسمي وقادتي
دراساتي حتى أسوان هر تدري لماذا ؟

- لماذا ؟

إن أسوان هي محزننا الثقافي والملاذ الذي لجأ إليه كل
تراثنا هاربا من الغزو، وفي أسوان لا تزال حية كل تقاليدنا وكل
أفكارنا الجوهرية عن الحياة والكون ..

وهي المحاميد مداحون لازالوا يحفظون تراثا معماريا يعيش
منذ الأسرة الأولى ويتوارثونه على التوالي منذ أربعة آلاف عام ،
وعشت هناك بين المحاميد ومعهم .. ودرست أساليبهم في البناء
وعلى إقامة الأسقف والقباب ودرست طرزهم المعمارية ومواسمهم
البنائية وأتذكرت كيف يمكن أن تتطور هذه الأساليب والطراز
والمواد .. وعلى ضوء العلم الحديث امتت معميريا بمصر الشعبية
الرفيعة

هل تدري ما هو أعظم ما أهدته مصر للمدنية ؟

الطوبى ، ختراج ، الطوبى ،

ولقد كان هذا بداية المدنية .. وانتقال لإنسان من حياة الغاية
إلى الحضارة .. ومن يومها ولبناء هو في مصر بلا منازع
كالعسفة بالنسبة للإعريق والقانون بالنسبة للرومان ،

ولقد كان المعماري في مصر لقديمة أخذ أعمدة الحضارة
والمدنية المصرية وكانت المعرفة الكاملة لأسرار الكون والطبيعة
شروط لابد من توافرها لكي يصبح مهندسا يستند إليه تصميم
معبد أو قصر .. وبهذه المعرفة الكاملة وصل الثلاثة الكبار من
المعماريين القدامى وهم امحوتب معمار رومر سنجوت معمر
الذير الحوى وامحوت بن هابو معمار الأقصر إلى مرتبة

القُداسة كحملةُ سرارِ الكون .

ولكن مصر لم تدع -القائدة لجرد بقاء احجارها واستيها
ولكن للتراث الحي الذي يحمله هذه الأحجار والذي سنصل
نحمله ..

* * *

وهي شقة حسن منحي كانت مصر ممثلة بكل حضارتها
الأثاث ولسماتر والمصابيح لعربية واللوحات والسمائل
الفرعونية والغرات ، لإعريقة وقطع الفن لشعبي الريفي على
لجدران والمكتب، ثم جو ، لسلام والهدوء العميق المنضطم
بالحياة .

سبحت فرصتي الذهبية حينما اردت مصححة الآثار ان
تنقل الفلاحين من قرية ، القرية ، في لأقصر وتسي لهم قرية
جديدة لتبعدهم عن مواقع الآثار .

ورأيت أن ساء قرية وهي لأقصر لمصايب لدولة هي مرحلة
حياسي ومنعتها الكبرى وصنعت روحي وكل نفسي هي المشروع .
إن ساء قرية هي مصر هو أبقى عبيد فني تقع مسئوليته على
بناء ...

أنتدري لماذا ؟

لأن لقرية هي وحدة الحياة هي مصر سواء الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو الثقافية أو الروحية. والقرية لمصرية لابد أن تعكس كل مصرية مصر.. وأن يحد هياكل مصري جذوره. سواء كان من الريف أو من المدينة ولهذا أيضا لابد أن يبنها الفلاحون وأن تبنى من تربة مصر وموادها وهذه كانت فلسفاتي .

إن أول مدينية هي ألا تبنى قرية ثم سحب الفلاحين من أيديهم وبصعهم فيها وهذا سوف يؤدي بنا إلى الخطيرة لا إلى القرية، وإذا أردنا أن نبني يجب أن نوقف في الفلاحين لرغبة في البناء لكي يبنوا لأنفسهم بأنفسهم .

وإذا أردنا أن نبني قرية في مصر يجب أن نستلهمها من تراث عمارتنا الشعبية وأن نعطيهم حيز م يمكن أن تعطيه العمارة الريفية بدلا من إعطائهم أحط ما تعطيه عمارة القرب وبذلك نتجاوز البناء مع روح الفلاحين ومع لبنة بدلا من الطوب الأجنبي التي شاعت فيما سمي قرى نموذجية والتي ليست سوى نفع تجثم على ريفنا وعلى أرواحنا أيضا .

ولقد كانت تشيرني دائما هذه القرى النموذجية.. فإن هذه الأبنية القبيحة التي لا علاقة لها بنا ليست مجرد تشويه معماري

وثقافى ولكنها أيضا خيانة لتراثنا ولقوميتنا لأن بناء الريف المصرى يعنى بناء وبعث حياتنا وحضارتنا المصرية. ولا نستطيع أن نبني ونبعث حضارتنا على أسس غريبة وربما على أسس العريقة.. متطورة على ضوء ما وصل إليه الفن والعلم الحديث .

إن الأسس يجب أن تكون تابعة من أرواحنا ولن يستقيم بناء قرات وبناء حضارتنا الجديدة إلا هكذا.. هل نعرف لماذا يفر المصريون من بيوتهم ولماذا يهدى جميعا قنقا عصصا في بيوتنا ؟..

لماذا ؟..

- لأن هندسة البيت المصرى هي المدينة لم تبن لمصريين ولم تلائم لتسكن إليها أرواح المصريين، ونحن ننقل هذا البناء إلى الريف بناء هذه القرى التي تسمى بمونحة

وفي القرية التي أزمعت بناها جند بمعمرى المحاميد من أسوان لكي يعلموا علاجى لقرية أصول الهندسة المعمارية الريفية.. وتعلم الفلاحون وعلى الأصح استيفظت فى أصابعهم عبقرية البناء المصرية المتوارثة واستطاع أن نصل إلى بدء فترة مصرية خالصة.. بمواد مصرية خالصة على طرز مصرية

وعصرية حالمة وفلاحي مصريين أصلاء. وبجح المشروع
ثم تجاوزت أصدائه لدور الهندسة والفن في العالم كله .
وقالوا في إنجلترا إنه أحمل شيء معماري في مصر
وقالوا في أمريكا إنه أجمل ما سيبقى بعد الأهرام ..
وقالوا في فرنسا وإسبانيا وهولندا وألمانيا والنمسا .
مثل هذا أيضا.. إلا في مصر أعطت الحرب ضد المشروع
الحرب ؟.

- نعم لحرب. لقد تأملت غلب كل قوى البيروقراطية وكل
مهندسي الخطائر والجرعات، و تهمة بأن تخرب وأسا يبي
بروات هندسية ومعمارية لاقرى وأسا تكلف جزائة النبلة ب لا
تطبيق، وهؤلاء الناس يعرفون دائما كيف يتصورون ولهذا
وجدتني فحاة مبعدة عن القرية وبركت البيوت والفلاحي وكل
أحلامي وأمالى نصف أطلال .

وأسهم حسن فصحى حريت مع موسيقى تر مر وأرسمت
تعايد أليمة عى وجهه الرقيق
هل فشلت ؟

- مستحيل . لقد جنث لكى أحتل مكانى القديم في كلية
العلوم الحميلة أستاذة للعمارة وبدأت أبشر بين الطلبة، وثق..

ثق تمام ان هؤلاء سيسون مصر كما أحلم بها وكف يحب أن
تبنى وسيثارون لي ولعصر .

* * *

وفي طريق عودتي وأنا أعبر كوبري الزمالة تطلعت إلى
حقول أمانة وقراها وتصورت حقول مصر وريف مصر.. لو سي
حسن فني كل لأربعة آلاف قرية ستكون ملحمة بناء حداثة
إن حسن فني شاعر بنظم قصائده وملاحمة بالطوب

◊ حكيم ولادة

المرأة تحب الشاعر الذي يعجدها والفنان الذي يتغنى
بجمالها، ولكن في قلب كل امرأة ركن مضيء لرجل ثالث يقف
إلى جانبها وفي أمتع لحظات حياتها .. وهو طبيب الولادة .

وأعظم طبيب ولادة معاصر في العالم كما تقول لمجمع
لعلمية الدولية هو طبيب مصري والملاك المدرس لساء مصر
وليوانات الحياة المقدسة في مصر نجيب محفوظ .

ولقد وهب نجيب محفوظ حياته للأم امرأة مد رأى ول
امراة تد وتدفع حياتها ثم لإنجاب ابن .

وإن كان هناك من يقول إنه ولد ليكون طبيب ساء لأنه خرج
إلى النور هو نفسه بعد ولادة عسرة كانت تذهب فيها أمه . حرم
«ميخائيل أفندي».. الموظف بالتصويرة ويومها وقف ميخائيل
أفندي والكتور منصور والحكيمة جيهان لا يمكن سوى أن
يصلوا لينطف الله بالأم والمولود.. وأصف الله وخرج المولود..
ليشرب وليعنو "ستاد لولادات لعسرة في لعالم كله !

ولكن نجيب محفوظ يستقيم إنه لم يوهب لنوليد السب

بمجرد ولادته ولكن بعد هذا بعشرين عام

وفى الإسكندرية.. «كتب أعمال فى مكافحة الكوليرا فتعرفت
بزمين فاضل هو وكيل المستشفى الأميرى ولما توطدت روابط
المعرفة بينى وبينه طلبنى ذات يوم لمصاحبتنه إلى حالة ولادة
متعسرة، وكانت المريضة شابة من أصل شركسى ومن عائلة
كبيرة معروفة بمدينة الإسكندرية، وكانت مهمتى أن أقوم بإعطاء
لبسج، فأما الولادة فيتولاها هو مع أحد مساعديه من أطباء
المستشفى، وقد حاول كل منهما توليدها «بالجفت» فلم ينجح
هذه المحاولات فاتفقا على عمل التحويل، القدى للجبن لكنهم
لم يستطيعا الوصول إلى القدم، وأخيرا نجحا فى إخراج القدم
وتحصيل الجسم إلى الأكف، ولكن الرأس لم يخرج فأخذوا
يشتردان فى الجذب حتى انقصر لجسم عن الرأس الذى بقى
داخل الرحم، وذهبت جهودهما فى إخراج الرأس فتراج الرياح
هاثرت عليهما بأن يستدعيا أحد الأطباء الأخصائيين فى
الولادة بالمدينة فأعلمانى بأنه لا يوجد فى الإسكندرية طبيب
واحد مصرى أو أجنبى مختص بالتوليد، ولم يأت الصباح على
هذه الشابة البائسة إلا وقد وافاها القضاء المحتوم والرأس لا
يرال داخل الرحم»^١

«وقد تركت هذه الحالة في نفسي أثرا عميقا جدا حتى أسي
لم أستطع النوم ليلتين متواليتين ولم يهدأ لي مال إلا في الليلة
الثالثة التي أحدث فيها على نفسي عهدا أن أكرس حياتي
لدراسة الولادة وخدمة المتعسرات فيها .

ویر الطبيب الشاب بوعده . وظل عشرين عاما طويلة يخرج
كل ليلة بلا استثناء لبحث عن ولادة عسرة في أحياء الفقراء
لكي يجيبها مصير الشركسية التعسة . واستولت عليه عاطفته
ولم تعد الولادة مهنة ولا فنا ولكن رسالة وتحقيق حياة . ومن
أجلها وصح الكتب العربية ، لوحدة في في الولادة والتمريض
حتى ذلك الحين . ومن أجلها أشرف على إعداد برامج مدرسه
الموليدات والعكيمات والمرضيات ، ومن أجلها أنشأ أول قسم
للولادة وأمراض النساء في القصر لعيسى وأنشأ أول مركز
لرعاية الحوامل في مصر وأجرى أغرب وأقسى عمليات ولادة
وأقام أعجب متحف في العالم لولادة وأمراض النساء . ثم
اختتم جهوده بكتابة كتاب قال عنه عميد كلية طب النساء
ببريطانيا السير «ايرولي هولاند» «إن كتابك بدون شك أعظم
كتاب ظهر في أمراض النساء والولادة إلى اليوم» وهو يفوق
بمراحل بعيدة أي كتاب ظهر في المملكة البريطانية أو في آسيا

تأوى الولايات المتحدة إنه لأثر حالك لحياتك المليئة بالبحوث العلمية الفذة والتعمق العلمى وفى كتابك هذا يتمثل الفن الراقى والعلم العزيز و لروح العلمية لسامية»

ويبدأ يوم لطبيب الكبير تماماً كما كان يبدأ يوم التلميذ المجد النشيط فى الساعة الخامسة صباحاً فى الصيف وفى الساعة السادسة صباحاً فى الشتاء وهو يبدأ دائماً بصلاة لىس فرانسيس الأسيس يرددها باللغة الإنجليزية قنلاً

«يا إلهى دعنى أكون دائماً رسول سلام .»

«وحيث يكون هناك كرهية دعنى أبذر الحب .»

«وحيث يكون هناك ألم أبذر الشفاء .»

«وحيث يكون شئ أبذر الإيمان..»

«وحيث يكون هناك يأس أبذر الأمل»

«وحيث يكون هناك ظلام أبذر لنور»

«وحيث يكون هناك حزن أبذر السعادة»

«أى إلهى لعظيم فلتكن إرادتك»

«يا إلهى إني لا أبحث عن الغناء بقدر ما أعرى الناس..»

«وانى لا أبحث عن يفهمنى بقدر ما أقهم أنا الناس»

لأنه «ياالعلامة... بأخذ» .

«وبالفقران.. يغفر لنا»

وهو يردد هذه الصلاة أيضا قبل كل عملية . فبتمحي دانت
ركنا صغيرا قبل أن نلبس فخاره ويريدها ، وإليها نسب سر
نجاحه وسر لمسة «محفوظ» الساحرة، وهي لمسة أصبحت
أسطورة طبية وغير طبية أيضا .

ولقد راه صبي صغير ذات يوم ينقد حياة أمه فكتب بعبد
صدف حصر لمرلنا مع اثنين من مساعديه ليحرق جراحه
لوالدني وكانت حالتها تنذر بالحصر وكنت متعلق بها تعلقا
شديدا فطفح قلبي بحبه وعرفان حميمه و ليت عني نفسي ب
أنهج نهجه ، ما تمكنت فيه رجس مالي.. ولم أكن أعلم وقتها أن
هذه ليست سوى أولى آيائه على وأنه سوف يطوق عذقي
بمعروف بعد معروف وجميل فوق جميل .

وأصبح هذا لصبي من أنبع تلاميذه ومن أنبع طباء النساء
في مصر واسمه «إبراهيم محدي»

وليس هناك متعة في حياته مثل إجراء عملية واستئصال
إنسان جديد . وكل واحد خرج إلى الثور على يديه مسجل باسمه
وظروف ولادته ومعامرة خروجه في يومياته، ومنهم من أصبح
صديق أو زميلا أو خصم له، ولكنهم جميعا تربطهم رابطة

وحدة.. فقد تلفقتهم نفس الأصابع إلى الحياة.. ولكن شعوره
المفكر دائم أمام كل عملية ولادة يحريها هو «ازدياد احترام
المرأة التي تتحس الأم ومتاع لا يقدرها ولا يفهمها لرجال هي
سبيل بقاء النوع. حقا أن المرأة جديرة بالإعجاب لأن هي جوفها
يكنم الخلود» .

وأمام منضدة العمليات تؤكد إيمانه بالنوع الإنساني .
«لقد درست لطبيعة أي الخالق جل شأنه - أسرع وأحكم
وسائلها لحفظ النوع، ولو بحثت عن عدد الذكور والإناث في أي
بلد أو مديرية أو قطر أو قارة لوجدت أن عدد الذكور دائما وبلا
استثناء هو ١٠٥ للذكور و ١٠٠ للإناث.. وهذا ينطبق على
العالم أجمع بلا استثناء مما يؤكد لي أن هناك قوة تسيطر على
العالم وتديره» .

- ولكن الحروب التي تسببت الرجال وتترك عشرة نساء في
أوروبا أمام رجل واحد ؟

- إن الطبيعة أي الخالق جل شأنه يفعل ما يؤدي إلى
تعريض الخسارة من الرجال بعد الحروب، وقد أجريت أما
نفسى إحصاءات على عدد الذكور والإناث في العائلات الأجنبية
و المصرية والدين قمت بتوليدهم بعد الحرب في مستشفى

الأنجلو أميركان من جهة أخرى، وجدت أن عدد الذكور كن
يزيد زيارة واضحة هي العائلات التي تنتسب إلى الرجال الذين
دخلوا الحرب.. وأنا لست لوحيد في الوصول إلى هذه النتيجة
فقد أيدتها الإحصاءات الدولية وأصبحت مؤكدة ومعترف بها .
وهي لا يتم ذلك في سنة واحدة بل هو يستغرق عدة سنوات
حتى يتم التوافق بين الجنسين» .

وأمام مائدة العمليات تؤكد إيمانه بالحب . وهو يمان حرم
جارم لأن «عائلة بلاحب هي عائلة فشلة إن جلا أو عاجلا
والحب هو الأساس الذي لن تستقيم بدونه حياة أو تسي على
غيره أسرة» .

ولكن أغرب ما أكدت مصدرة لعمليات إيمانه به هو -
المعجزة - فإن لعالم العقري الذي قضى حياته في المدن
والتجارب والعمليات يؤمن بالمعجزة .

«إنني أؤمن بالمعجزات وفي كل يوم أراها كطبيب وشار
عقلي ولا أملك إلا أن أقف مبهورا مذهولا، وفي المواقف الحرجة
الكثيرة لا أملك سوى أن أهلي. وأقول لك لولا ما يشعر به
الطبيب من القبطة عند شفاء مريض تحرجت حالته في كفاح
دائم مستمر مع قوى خطيرة مشطه مجهولة غامضة، لولا ذلك لما

كانت مهنة الطب مما يعبط عليه لطبيب، ونحن أحياناً نستهلك كل قواها على التفكير والتنفيذ. ولنتصور موقعي مثلاً حينما يحتم على أن أصحى بأحد اثنين حياتهما هما كل رسالة حياتي «الأم أو الوليد».

ولكن كل مشافة ومتاعبه ومواقفة لعنيفة الحرجة بعوضها، ويمسحها شيء واحد هو «إتسامة السعادة التي أشاهدها هي واحة لسيدات عدد رؤيتهن الولود لأول مرة، إنها سعادة لا يمكن أن تعدها سعادة أخرى في لوجود، هي تنسى السيدة كل ما شعرت به من الأم وما مرت به من عناء عسير وكذلك تفعل بالطبيب».

والساعة الآن الواحدة ولقد استغرق الحديث الوقت لدى يمحى عادة لقرعة البحوث و لجللات لعلمية هي شرفة نادى سمورتنج من الساعة لحدية عشرة إلى الساعة الواحدة .
و حينما تلتقى عقارب الساعة لابد أن يجلس طبيعما العظيم إلى المائدة مع أسرته ليتناول لعداء وحينما ينتهى من تناول العداء لابد أن يستريح في الفراش ساعة أخرى ثم يمضى ساعة ونصف الساعة في قراة الكتب الطبية ثم يتناول الشاي في الساعة الرابعة ونصف ثم يذهب للعيادة في الساعة الخامسة

نفس العبرة منذ خمسين عاماً. بنفس النظام الذي نحب
لنصر أعظم طبيب نساء في العالم .

◊ حکیم عیون

الطب.. قصص بوليسية وكان الدكتور محمد صبحي أشهر
أطباء العيون في مصر .

ها.. هاها.. قصة حياتي حيكم عيون ككل لحكما.. وتاريخ
حياتي أيضا وتاريخ ميلادي.. ه ها مستحيل.. حكب العيون لا
عمر لهم.. ماذا قال الشاعر

«إن العيون التي في طرفها حور» . ه ها

- كيف أصبحت حكيما ؟

- هاها بالصدفة.. مجرد لصدفة.. لقد أردت أن أكون
محاميا . ولكن لم أنفع.. هاه وأردت أن أكون مهندسا
وسقطت أيضا.. خداول الوغاريتمات وحسب ،ملتئات أخافتي
ولم يبق سوى الطب وأن أكون طبيبا طيب رعم أنه هاها .

ولا تزال ؟

- لا.. لعب من أو نظرة يرول د ثما ولعب بعد الزواج يدوم
دائب .. هاها.. أليس كذلك؟ هكذا أحببت الطب بعد عشرة
طويلة

حب ضرورة ومصحة .

- لا .. لا .. دخلت الكلية وأنا لا أعرف حرفا واحدا من الإنجليزية وكنت من خريجي القسم الفرنسي.. وكان التدريس باللغة الإنجليزية. وظلت شهورا أسمع المحاضرات ولا أفهم وبدأت أنعلم الإنجليزية وأخذت أذاكر الطب كمحرد رغبة في التفوق هاها.. قصة لعلم النفس. أليس كذلك ؟

والغريب تفوقت.. وكنت من الثلاثة الأول.. أنا و لنيماوي والمرحوم أنيس أنسى وطالت أن يذهب إلى أوروبا هي بعثة ورفض طلبنا، وانصب عينا اضطهاد الأساتذة الإنجليز ثم بدأوا يشربوننا .

- يشربونكم لماذا ؟

إنجليز.. هاها.. على أياما كان الإنجليز انجليز. وكنت أنا والميماوي من أنصار مصطفى كامل والحزب الوطني فرفضونا رفضا تاما .

وذهب إلى سعد باشا زعلول وزير المعارف واستطاع سعد زعلول أن يرغم الإنجليز على إيفادنا في بعثة إلى إنجلترا. ودهما إلى عميد الكلية «كيننج» وسألني أي فرع من الطب تريد أن تخصصني فيه، وكمعظم الأطباء قلت على الفور

- الجراحة ...

وزلخني سكرتيره وقال جراحة . جراحة .. كلكم جراحة. حد
طب العيون .

وقلت عيون هاها

وسعدت طبع ٩

- طبعا.. صعا.. هي نجتوا نصف أهم شينيني في حيتي
حتى الآن حب الوطن. وكره الإنجليز

- كره الإنجليز ٩

- هي السيلة الأولى نمت من غير عشب.. لأنني تأخورت عن
موعد العشاء بضع دقائق.. وبعد بضعة أسابيع كدت أعود إلى
مصر هاربا لأنني ضقت بداب المائدة.. هاها.. الشوكة
والمعلقة.. هاه . إن استعمال أدوات المائدة عند الإنجليز عسبة
معقدة.. تختلف عن أي سد آخر .

شوكة باليمين وسكينة باليسار دائف . هي مرسا تستصيع
أن تضع السكينة وتستعمل الشوكة وحدها ولكن هي بريطانيا
هذه عيب الشوم.. هاها.. هاها .

مرة كنا نكل على المائدة وكان معا زميل مصري.. فسحب
برطمان المرسى وأخذ ياكل منه . وكانت مصيبة كبرى هاها

وأنفذت الموقف بصعوبة ولكن هذا غير لسداه لتي كنت أريد
”ن أحدثكم عنها.. الطامة الكبرى .

– ماذا كانت ؟

التعصب ، تعصب الإنجليز .. مررت على عدة فنادق فكانوا
يرفضون نزولي ويقولون لاتأخذ مصريين أو هنودا وكان هذا
يحمل الدم على في عروقي، ثم وجدت فندقا ، وبعد بضعة أيام
اكتشفوا أنني مصري، وعدت لأجد حقيقتي على الباب على
الباب.. فهم على الباب، لم يفكروا في أن يشرحوا لي شيء ..
ومن يومها كرهت الإنجليز وتعصبت للألمان .. وأنا متعصب
للألمان ولا أراي.. «جرما نوفيل .. جرما نوفي» وأنت تعرف أنا لا
أتكلم الإنجليزية إلا للضرورة القصوى، وحتى في الجامعة كنت
”درس بالعربية كلما أمكن .. حذ بآك هناك من يتكلمون ثلاث
كلمات عربية وخمس كلمات إنجليزية. هؤلاء أنا أحتقرهم لأن
لعتنا حصنة قوية عظيمة. وأنا لا أحب الأدب والشعر العربي
ولا أقرؤهم كثيرا ولكن أذوقهما طبعاً.. لغتي المفضلة هي لغة
العيون.. هاها.. ماذا قال شوقي

وتعطلت لغة الكلام...

وخاطبت عيناى في لغة الهوى عيناك

- كيف أحببت لعلم ؟

- اه .. اه .. هذا شيء غر .. لقد كنت في مصر محرد صنايعي ولكن هناك دخلت معهد كبيرا هو معهد العلم ... صنايعي لي أساتذة وفي اللغة العربية يقولون «المعلم» وليس هناك كلمة أحمل منها المعلم الذي يعلمك حتى تصبح معلما . وفي بريطانيا أصبح لي معلم في طب العيون، وبدأت أكتشف الطب، وأجمل ما في الطب وهو العين . ليست العين إيه . هاهنا . سحر العين وسواد العين . وكل العين ولما تنقي العين في العين .. ههها .

نبي أعجوبة العجائب .

انظر .. هذه خريجة العين من الداخل .. نمل .. ألا تحسن تتناسق ووحدة .. وتكمل عمل في حقيقة لا خيالاً ، ألا تصدق ؟

أصدق ..

- أنا عاوي فنون .. موسيقى وأدب وسجاد . وهي هواي متعة .. هاهنا . سجاد كثير مريف طمعا . لهوية التي لا تعش فيها أبدا هي الموسيقى .. وأنا سميع قديم .. قديم جدا .. الله يرحم الشيخ سلامة و لشيخ سيد درويش . طبع لا أواق على

موسيقى عبد الوهاب وعثمانه عبد الوهاب صاحبي.. هاها..
ولكنى لا أوافق .

الموسيقى الغربية شيء والشرقية شيء آخر.. فمثلا أنا
أسمع السيمفونيات وأسمع ألحان زكريا أحمد وأعجب بالاشين
ولكن تدخّر زكريا أحمد في موزار غير معقول، خلطة نائخة.
هاها.. أليس كذلك ؟
كذلك .

- ولكن طبعا هوايتي وتسلّيتي لكبرى هي الصب.. قصص
غرامية ماذا تكون هذه القصص قصص بوليسية؟ أير تقف
هذه القصص معامرات عجائب؟.. ما قيمتها بحوار أسرار
جسم الإنسان .

الطب نسلية مذهشة.. وتسلّيتي هي كتب الطب.. وهي
تقويني إلى عوالم مجهولة وهاق شاسعة واسعة.. كل يوم شيء
جديد وحقيقة لم تكن معروفة وانتصار على مرض أو ميكروب
واختراع مصل أو دواء، دينا كاملة، وجوهرتها وبرتها هي،
طبعا، العين .

هل تدري أن هذه الكرة الصغيرة هي وحدها قارة عظمى
ملأى بالعجائب أسبح أنا فيها تماما ككولبس أو ماجلان.. بحار

وأنهار وجبال ووديان، وسر أكبر لم يكتشفه أحد، تراه أمامك
وتحمسه وتلمسه ولكذك لا تترك كتبه أبداً .

لقد وقعت فى عرام العين صحيح.. والله صحيح . سنتنى
العين كطبيب وكثير طبيب .

لقد اشتركت فى مسابقة جمال عيون ذات مرة، وكانت
ترشيحاتى طبعا هى الفائزة.. وأنا أنظر إلى الشخص وإلى
الرجل أو المرأة.. والمرأة أفضل طبع فاستطيع أن أقرأ من
العيون كل شيء فى داخله العين هى أكبر حاسة معبرة فى
الإنسان.. وليس هناك عين فى لعالم مثل لأخرى مطلقا ولذلك
كل عين عليها حارس.. العين طبيب حارس.. هاه .

- وإلى أين قادك هذا الغرام ؟

- إلى كل مكان.. حيثما كان هناك أستاذ كبير فى طب
العيون ذهبت إليه وجلست تحت قدميه من الأستاذ الكبير
هوكس.. أبو الرمد وصاحب العيون فى فيينا.. إلى الأستاذ باراكير
أعظم جراح عيون فى برشلونة.. وكل هذه الصور التى تراها
على جدران الغرفة أستاذتى، وأنا أحرص دائما على أن أحصل
من كل أستاذ على صورة وإهداء

ولقد عدت إلى مصر.. إلى بلد العميان كما يقولون.. وبدأت

أمارس طب العيون.. لقد كانت كل حالة وكل عملية بالنسبة لي معامرة.. وكان شعاع مريض أو نجاح عملية ميثوس منها يمنحني نفس المتعة التي تحصل عليها من كتابة مقال أو يحصل عيه زميلك الرسام من شلطة خلفه كريمة .

انظر هذا اخر كتب وصلني من فرنسا عن طب العيون
إبنى أصحابه سعى ومجلة «الكوبيسير» وهذه الكتابات عن
السجاد

إن هذه الثلاثة لا تختلف عندي في متعتها.. وربما كن هذا هو السر في أني مازلت أمارس عملي وعملياي نفس المتعة التي كنت أعمل بها وأن طبيب صغير إن من أسرار السعادة وصول العمر أن يكون عملك هو أيضا هو يتك وغر لك .

وشعرت يوما بنشوة عجيبة حين أجريت عملية ترقيع قرنية لفتاة حسناء فقدت بصرها وأملها في الحياة واستعادت كل شيء بعد عملية دقيقة.. لقد كانت رؤيتها وهي تفتح عينيها وتسترد عالمها جديد، تكملة تساوي كل متع الحياة الدنيا
هاها ..

وتصور أن لي خمسين عاما الآن. حولي خمسين عاما أحرص من مغامرة كهذه إلى مغامرة.. أليس هذا عظيما .

خمسین عاما ؟

هاها .. هاها .. استخرجتموني .. اه خمسین عاما ، وعمری
الآن بالضبط - وأمری لله - سبعون عاما . ولكنی أعمل یوم
ست ساعات على الأقل وأجرى عملیاتی بنفسی ومعظم
العملیات التي تصل إلی هی المعقدة التي رفضها السوق ..
هاها ..

- وما السر ؟

- اليوم ظهر . هاها .. هل تستغرب . إیسی أمام ظهرا لا
وأكل بحساب ولا أشرب لا یادرا ولا أدخن إلا نادرا . ولكن .
قبل هذا وذاك وفوق هذا وذاك .. أحب الحیاة بنفس حماسکم .
یا کنتم تحبون الحیاة . هاها هل تحبونها ؟
- بعد قصتک هذه لابد .

◊ حديث مع الملكة نازلي

في فبراير سنة ١٩٢٢ جاءت إلى مصر الصحفية والمؤلفة
الأمريكية جريس هويستون واستطلعت بعد جهد كبير أن تقابل
«الملكة نازلي» ملكة مصر في ذلك الحين وأدلت إليها الملكة
بعديث أحدث ضجة بعد نشره وكان من آثاره أن الملكة نازلي
لم تقابل صحفيا بعده فكان أول وآخر حديث صحفي لها ..

قرأت في طفولتي قصة العصفور و قفص الذهب ولكنني لم
أر عصفورا حقا داخل قفص من ذهب إلا حينئذ قابلت الملكة
نازلي ملكة مصر لجميلة، والملكة نازلي نموذج حي لهذه
الأسطورة، بل هي مثل بارز لمساواة المرأة أو بالأحرى الملكة
لشرقية في عصرنا الحديث، ولقد امنت بعدما عرفت قصتها
سامثل القائل «مصدوعة تلك الرأس التي تحمل تاجا»

وقد تفضلت خلالتها فأذنت لي بأن أختلس نظرة إلى لسان
لفخم الذي تتبع فيه وإلى العزلة الوثيرة التي تحيا فيها هي
قصر عاندين، أو على الأصح مقاطعة عابدين فهو أفخم قصر
رأيت في حياتي

ولقد تم هذا في نفس الوقت الذي كانت مصر تتحول فيه بواسطة تصريح بريطاني إلى مملكة مستقلة ذات سيادة، وكانت نارلي تتحول فيه أيضا إلى ملكة صاحبة جلالة بجوار زوجها الملك فؤاد الأول .

ولقد خرجت من عهد الملكة نارلي وأنا أومس بأن هذه الملكة الصريحة لطمرح سيدة ذات روح متحررة، وأنها ستنتهز أول فرصة سانحة لكي تحطم كل القيود التي تضعها التقاليد حول عقها وتهرب من السجن الضامخ الذي تعيش فيه .

ولقد نشأت الملكة نارلي وعاشت حتى زواجها في بيئة عصرية متحررة، وكانت أمها من صديقات هفوية هانم زغلول الحميمات، كما كانت من مؤيدات حركة المرأة الجديدة وزعيماتها، ولكنها ككل الزعيمات الوطنيات في مصر رفضت يده من نارلي وأمها بعد رواج نارلي، وذلك لأنها كانت تؤمن بأن ملك فؤاد صنيعة البريطانيين وأنه لا يحب المصريين

والم تفقد الملكة نارلي أملها في أن تحصل على حريتها وكما قالت لي لا تريد أن تكون أقل استمناعا بالحرية من بنت زوجها الأميرة فوقية، فهي في مثل سنها ولكنها تتمتع بحرية واسعة وتسدح إلى أوروبا كل عام وتحضر الحفلات سفيرة الوجه.

وذلك في الوقت الذي لا تقاب فيه الملكة نارلي أحدا إلا أقربها
وبعض صديقاتها، وأقصى رحلة يسمح لها بها هي الرحلة من
قصر عابدين في القاهرة إلى قصر رأس لتين في الإسكندرية
وهي كما قالت جلالتها

«مدينة رطبة جدا لا أحبها»

ولقد قيل لي في لسراي حبيب طلعت المقايبة إن
جلالتها تتمتع بحرية تامة وأنها تستقبل من تريد. ولكن هدى
صديقاتها أكدت لي أنها لا تخرج من السراي مطلقا وأنها
أيضا لا تقابل إلا عددا محددا من السيدات فقط لا للنساء، وأن
هؤلاء يدرجن أسماءهن في كشف تعدد كبيره الوصيفات مدام
قطاوى باشا وتعرضه على الملك الذي يشطب منه كما يشاء ثم
يعيده إليهن، ولقد تحققت بنفسى من هذا كله بل ووجدت أن
مقابلة الملكة نارلي أصعب بكثير من مقابلة أية ملكة أخرى.
ووجدت أيضا أنني لن أخص إليهن إلا بالطريقة التي ترضى بهن،
إلى أى شيء آخر «الوسطة» .

وقد نوسطت لى «ليدى كونجرىف» روجة القائد العم
البريطانى وأخبرتني أن على أن أكتب اسمى أولا في الكتاب
الملكى.. سجل لتشريفات. فيحدد لى موعد بعد ذلك .

وذهبت مع «ليدى كونجريف» فى سيارة يقودها سائق
 انجليزى بجانبه حادىم أسود فى ثياب ذهبية مزركشة، وحين
 وصلنا قصر عابدين اجتزنا عدد من البوابات الضخمة حتى
 وصلنا صياح الملكة ووجدنا على الباب عشرة حراس عملاقة فى
 ثياب أنيقة ومدحرجين بالسلاح.. لحراسة المدخل ثم فتح لنا
 الباب ابن هويل وأعطاه على الفور ووجدنا أنفسنا فى ردهة
 هائلة إلى حد البذخ وتوسط لردهة ثلاث سيدات حميلات
 وتقدمت أولاهن بابتسامه رقيقة خلاصة وقادتنا إلى منصة من
 الزحام الفاخر، وقدمت لنا قلب من الفضة لىكتب اسمنا فى
 الكتاب، وكتبت «سمى وكنت لىدى كونجريف اسمها، وقادت لى
 إن هذا هو كل ما عينا أن نفعن.. ولم يتحدد سمنى.. وبعد
 سعى متواصل من الدكتور هاويل لمعوض الأمريكى فى القاهرة
 وفى اليوم المحدد توجهت إلى القصر أنا ومسرة هاويل وبعد أن
 مررنا بكل البوابات والطقوس السابقة صعدنا السلم الضخم إلى
 غرفة استقبال الملكة.. وقد اجتزنا فى طريقنا بوابة أنيقة محلاة
 بنقوش الذهب والفضة ووقف عليها اثنان من الأعوات فى ثياب
 مزركشة تبعث على الهيبة وإعجاب، ثم وجدنا أنفسنا فى غرفة
 واسعة بها ما يقرب من عشر مصيفات ظهرن فى جمالهن

وأناقتهن وسحرهن كالحوريات، ومن هذه الغرفة بلغنا إلى عرفة أخرى كان بها سيده واحدة مهيمه الطلعة تبدو بشعرها اليلاتيني وثوبها الباريسي الأنيق مثلاً للجاذبية، ولأنافة والسحر الفرنسي وكانت هذه هي مدام جوريف أصلان قطاوى «باشا» كبيرة النوصيفات والتي أخذت في رقة ولباقة أخاذه نفههما طفوس ومراسيم مقاسة ملكات الشرق. وبينما كانت تتحدث كنت أجد ببيصرى في الزوعة والفخامة و لحو لحيالى المحيط به وأتصور كيف يغرق ملوك لشرق وملكانه أنفسهم في لترف ولنعيم ناسين الحياة ولشعوب .

وسارت مدم قطاوى وسررا وراها إلى الملكة.. وكانت جلالتها واقفة فى غرفة عسيحة واسعة تحت صورة ضخمة لحميها الخديو إسماعيل وقد ارتدت ثوبا من القطبغة الخضراء الغامقة من صنع باريس وعطت أصابعها بمجموعة من الخاتم الماسية البراقة وتدلّى من أذنيها قرط تعلق به ماسة فى حجم البندقية. وكان شعرها مقصوصها وفق «الموضة» الباريسية ولكنها وضعت فى مؤخرته مشطا كبيرا على الطريقة الإسبانية كان لون بشرتها أبيض ناعم.. وشفتاها رقيقتين وعيناها مكثتين على الطريقة الشرقية التى تضعى على عيون المصريات

سحرا وبدت جلالتها بسيطة جذابة كمسة نادرة من التي كانت تتحلى به .. ولم تكذ عيسى تقع على هذا الجمال الساحر الخلاب حتى أخذت ولم أملك إلا أن أقول: إننى أدرك الآن يا صاحبة الجلالة لماذا يصر الملك أن يجيبك من لقاء لناس والصحفيين .

وصحكت جلالتها ضحكة عالية مرحة رفعت على الفور الكلفة بيننا وقالت فى أسلوب رقيق : « ب سيدنى .. ولكن يجب ألا تقولى هذا للملك، من يجب أن تؤكدى له أننى أستطيع الخروج ومقابلة الناس فى أمان فهو غيور .. غيور جدا .. جدا .

وضحكت .. وقلت لها : له حق وعلى كل فإن الرجال جميعا فى هذا سواء .

و،ستطردت جلالتها تقول وعلى شفيتها ،بتسامتها المرحة لا .. ليس إلى هذا الحد .. وبهذه الماسسة أهيرينى هل خترعوا حق فى أمريكا تليغونا يرى فيه المتكلمون بعضهم بعض .

وقلت لها : لا أدري .. ولكن .. لماذا ؟

واستغرقت جلالتها فى لصحك ثم قالت : جاعى الملك منذ بضعة أيام لقلقا مهموم .. وقال لى : لقد احترعوا فى أمريكا تليغوب يرى فيه المتكلمون بعضهم بعضا ، وإنه سيعمم فى العالم

قريبا . وهذه المسألة تشعلة إذ لا يرى من يسمح بإدخاله في القصر أم يرفع التليفونات كلها من هنا .. تصوري إنه عيور إلى درجة لا تطاق .

ولم يكن في حديث الملكة أية مرارة أو ألم بل كانت في مرحها - حمساء في الثاية والعشرين من عمره .. قبلت مصيرها وأصبحت تجد متعة في وجوده وسط أولادها وجواهرها ولكن

وقلت لها كان يجب أن تتفقا قبل الروح في حدود العرة وقبورها كما يفعل عند في أمريكا .

وضحكت جلاتها ضحكة مرحة صهية على طريقتها وقالت يبدو يا سيدتي أنك لازلت تجهلين تقاليد الشرق مع ما قيل لي عن إمامك الشامس بأحواله .. إن الفتاة عندما تتحجب من سن الرابعة عشرة .. وتخطر أولا نخطر في الثامنة عشرة أو قبلها بينها ستتزوج فلانا وكل م عليها هو أن تستعد .

وقد قيل لي وأنا في الثامنة عشرة إن علي أن أستخدم لأتزوج السلطان ولما عارضت وكان العريس يكبرني سنوات عديدة تعجبوا وقيل «كيف ترفض بيت من الشعب يد السلطان» .. وأخذت جلاتها تصحك في صها .. بينما سبحت أنا أفكر فيما

عرفته من قصة هذا الزواج، وكيف قضت الملكة أسابيع في البكاء والصراع.. قائلة إنها لا تريد أن تفنى شبابه مع رجل في سن أبيها.. وإنها لا تريد أن تعيش إلى حوار رجل لا يعيش في قلب أحد قط من رعاياه، ثم كيف تعطب نظام الأسرة التركيبي ووجدت هي أن رواجها أصبح أمرا لا مفر منه.. وكيف طلت تقاوم حتى آخر لحظة . حتى لقد أقيم الزواج بلا احتمال ولا صخب كما هي العادة ولم يشهده سوى أسرة العروسين من الرجال ثم سيدتان فقط إحداهما مدام قطوى، وبالطبع لم يفرح أو يخفق قلب أحد في مصر لزواج الملك المتعجرف الذي كان يعيش في خوف دائم من شعب بلاده .

وأخذت أجول بمصرى في صورة حميد الخديوى إسماعيل المعلقة فوق رأسها وفي زهريات الورد البديع المتناثر هي كل ركن من الغرفة.. وجلالتها كما عرفت معممة بالورود وهي تغيرها يوميا وتحب أن تكون كلها من لون واحد .

وقلت لجلالتها بعد لحظات الصمت إننى أرى الحرية قادمة

إلى نساء مصر

فردت على الفور إن الحرية قادمة لاشتكت عليها ولكنها قادمة بسطة وأنا فرحة بها.. وأدعو الله صباحا ومساء "لا تلقى فورى

نفس مصير أمها.. وأن تستمتع بالحرية فتستطيع أن تتروح من
تريد وتساغر وتذهب وتجي.. الأمر الذي لا أستطيعه أنا .
وسرت غمامة حزين في وجه المنكة.. ولكنها ما لبثت أن
استعانت مرحها بسرعة وقالت إن فوزية ستأخذ برأى.. لا
صالح .

وسالت جلالتها أظنك على علم بحركة المرأة الجديدة
وكفاحها فما رأيك فيها ؟

فقالت إنني أعرف طمعا شينا مما يفعلن وأنا شديدة
لإعجاب بهن وإن كنت لن أجي شينا من شعار حركتهن ولكن
ستمتع بها فوزية .

وسالت جلالتها وكيف تقصين وقتك هنا . وماهي هوايتك
المفضلة ؟

فقالت لي هو يتان إحداهما أمارسها والأخرى لا أستطيع
تحقيقها وهي السفر، وأنت لا تتصورين كم أحب السفر وقد
طلبت من الملك مرارا أن يصحبنى معه في أسفاره ومع ذلك
فليس عندي أمل في أن يوفق لأشيء إلا لغيرته الفظيعة.. أنا
هي شوق شديد لرؤية أوروبا مرة ثانية، إذ لم أسافر إليها منذ
كنت في الثالثة عشرة من عمري ولقد سافرت يومئذ مع الأسرة

وهي أسرة كبيرة إذ لى شقيقتان وعدة إخوة.. ولذا لم أستطع أن أمهم أو أستمتع بالكثير مما رأيت.. ولم أكن أيضا أجد لغة أجنبية.. فانا لم أتعلم الإنجليزية إلا في السادسة عشرة ولكنني أتكلم الفرنسية بطلاقة وقد تعلمت الإيطالية أيضا. فضلا عن العربية طبعا .

واستطردت جلاتتها قائلة ولكن ما أريد أن أراه حقا هو العالم الجديد . أمريكا.. لا بد أنها بلاد رائعة عظيمة وأنا أحلم برؤيتها كثيرا فانا لا أحب أن أظل هنا طوال الوقت لا أسافر إلا إلى الإسكندرية، المدينة الرطبة التي لا أحبها، وأنا أفضل أوروبا ولكن الملك غيور.. غيور جدا .

وسكنت قليلا.. ثم قالت إن هذا حمق وعباء فطبع .

وأردت أن أدير لغة الحديث إلى موضوع آخر فقلت لها

- وما هي الهواية الثانية ؟

فأجابت. القراءة وأنا أقرأ كثيرا وإن كان من الصعب أن أحصل على كتاب جيد .

وسألتها هل أبحث إليها بكتاب أمريكي جديد عن المرأة. فقالت. إنني أجد صعوبة بالذات في الحصول على كتاب انجليزي جيد.. ولذا ساكون سعيدة ومسورة أن أقرأ مع ابني

فاروق هل تصدق أنى بدأ يتعم الإنجليرية ويتكلمها لأن
وعسرة لا يزيد على سنين؟ إنه ذكى ذكى بشكل يجعلنى أخاف
عليه أن يتقلب نكاحه إلى الضد ؟

ولما سألتها عن الطريق الذى أبحث عنه بالكتاب قالت
أرسلني إلى مدام قطاوى طبعاً.. ليمر على رقابة المص قتل أن
يصل إلى يدي .

ودخل الخدم يحملون القهوة والبطائر. حينئذ انتهى من
تناولهما وقفت الملكة بشرة نهائية لزيارة ووقفنا وسمعت
مودعين .

وتركت نازلى ملكة مصر الجميلة محوطة بالأزهار لنادرة
وتحرسها روح الخديوى. وفى آخر لرددة استكرت مرة أخرى
لأنظر إليها.. كانت لاتزال واقفة فلوحت إليها بيدي على طريقتنا
الأمريكية وتناست جلالتها التقاليد وأخذت تلوح لى بيدها النصبة
الجميلة ذات الماسات البراقة.. إنها هى الأخرى ماسة نادرة هى
صندوق فاخر.. ولكنه صندوق معتم معظم .

◊ حكم قصر الدوبارة

أصدر دافيد كيلي مذكراته الديبلوماسية. وقد كان دافيد كيلي مستشارا لدار المندوب السامي أو قصر النوبارة - كما كانت تسمى - وذلك خلال الفترة العرجة النفيقة من ١٩٢٤ - ١٩٢٨ وهي الفترة التي عقدت فيها المعاهدة المصرية ومعاهدة مونثرو .

كان مرثي من وزارة الخارجية لا يكفي سوى بفقتي في لندن، ولهذا حينما عرض علي منصب المستشار في إحدى سفاراتنا في الخارج لم أستطع أن أرفض وحينما جاء المنصب في القاهرة وافقت علي الفور .

وكان ذلك سنة ١٩٢٤ وكان مندوب السامي في مصر السير مايلر لامبسون قد جاء إلى بريطانيا في أجازة طويلة لينتزوج وخلال العطلة والزواج وشهر العسل كان علي أن أقوم بعمله .

* * *

ووصلت إلى مصر وبدأت أعرف وأدرس مصر ورجال مصر وكان رئيس الوزراء في ذلك الحين توفيق نسيم، وكان توفيق

نسيم يعد نفسه بصراحة وبلا حاجة إلى موارد صناعية وكان يعترف بهذا فخورا وبغير تحفظ، وكان يعتقد أنه اشتغل سبعين طويلة مع عدد كبير من رجالات وموظفينا، وفي قرارة نفسه كان توفيق نسيم يأسى دائما لأننا قد تخلينا عن الكثير من نفوذنا وكان توفيق نسيم دائم الزيارة لقصر الدويارة وكان يطلب طائعا مختارا مشورتنا في كل شيء ويعمل بها طبعاً¹

ولقد عجبت في أول عهدي بالعمل للعدد الكبير من الشكاوى والمطالب التي كانت تنلقفها لسكرتارية الشرقية من بعض الفئات كالسياسيين وكسر الموظفين الذين يريدون المناصب دات النفوذ. هذا إلى جانب شكاوى من فلاحين يشتكون مالكا اغتصب مياه الري

ولقد كان سيل زوار دار المندوب السامي لا ينقطع، ولكن كان من أطرفهم وأكثرهم إثارة لإعجابي وأكثرهم تردداً لشيخ المزاوي شيخ الجامعة الأزهرية العظيمة وشيخ الإسلام في مصر حينذاك، وكانت طرفة الشيخ لحاسة تندو في عنايته دالاتجاهات الإصلاحية التي كان يشجعها بغير ضجة وهي محاربه لكثير من الخرافات الشائعة .

ولكن كل شيء في مصر كان يبدأ في قبضة الملك مرزاد هذه

الشخصية وهذا الرجل المهاب المثير. ولقد بدأ الملك هوّاد حياته ضابطاً في الجيش التركي وعين محققاً عسكرياً تركياً ثم ترقى من منسبة ليعيش في القاهرة حياة فقيرة نسبياً، وحينئذ عيّن سلطاناً حنفاً لأخيه حسين كامل تحت الحماية البريطانية فتمسّ على منصبه وعى مهامه الملكية بشغف وبمعرفة عبر عادية للحياة، فضلاً عن نكاه طبيعى لأمع ودهاء عميق راسخ. وكان الملك هوّاد يحتقر مواهب الإنجليز الثقافية ويحتقر مواهب أكثر السياسيين المصريين الخلقة وخلال آخر عامين من حياته أتبع لى أن أقضى معه ساعات طويلة عجيبة من حياته.. ويبلغ ما قاله لى حينئذ من العراية درجة تجعل من عدم اللبقة أن يُورده. فمثلاً كان دائماً يقفّر بأنّه يفهم الخلق الإيطالى والفرنسى والألمانى فهما تاماً، ولكنه قد يشّ تعاماً من فهم أو تفسير الخلق البريطانى وتصرفات البريطانيين، وهو لا يفهم ولا يعرف لهم ولا يملك، لا أن يحسّ بأشدّ لمرارة نحوهم لأنهم مثلاً فرضوا دستوراً بلجيكيّاً على المصريين الذين لا يصلحون إطلاقاً للحياة البرلمانية، وما دامّت مصلحتنا الكبرى في مصر في مصلحة استراتيجية بحثة فلماذا لم نفعّ بشّ نترك له هو حكم البلد وإدارته كما يريد ونكفّ نهائياً عن التدخل في أساليب

حكمه وهو يضمن له مصالحنا لاستمر تيجية ومواصلتنا
الإمبراطورية ويؤمنها لنا كم لا يستطيع حاكم اخر لمصر »
ولقد كان الملك فؤاد مصابا مجرح في زوره نتيجة لمحاولة
اعتداء على حياته قبل أن يصبح ملكا، وحينما كان الملك يفض
أو يستشار كن يصدر عنه نباح عال عريب يبعث الدهر إذا
سمعته لأول مرة ولم يكن قد خذرك أحد منه، وكان هذا الصوت
الحفيف ينبعث أمامي في كل مرة يذكر فيها الملك سلهي مورييس
باترسون لدى آثار حفيظة وحقد ملك فؤاد حتى كان مجرد
ذكر اسمه يثير سيللا من السباب

وكان باترسون قد جاء إلى مصر في أغسطس سنة ١٩٢٤
لمهمة خاصة . كان الملك فؤاد قد أقال وزارة يرأسها رجل واسع
لذكاء ذو شخصية خارقة هو صدقي باشا، وكان يحكم عن
طريق وزارة من وزارات لقصر المعهودة يرأسها نكرة يدعى
عبد الفتاح يحيى باشا وكانت وزارة الخارجية البريطانية
تحشى أن يؤدي اضطراب الموقف السياسي في مصر إلى هرة
قد تؤدي إلى عودة الوفد إلى الحكم، ولهذا قررت إفاد مورييس
باترسون رئيس القسم المصرى إلى القاهرة حتى لا تخلو دار
المنسوب لسمي. ولم يكذ باترسون يمس إلى القاهرة حتى وجد

الملك مريضا مريضا شديدا يخشى منه على حياته ولم يكن بائرسون ورجاله يريدون أن يموت الملك هؤلاء والوراثة في يد عبد الفتاح يحيى، وقرر بائرسون أن يعهد بالوراثة إلى توميف نسيم الذي قضى كل حياته يعمل مع البريطانيين وتحت إشرافهم وكان يتلهف دائما على التعاون معاً، واستقال عبد الفتاح يحيى عن الفور، وتولى نسيم الوراثة وأثار هذا الملك هؤلاء وأخرجهم عن طوره حتى لقد بدأ يفكر في الانتقام ولو عن طريق إعادة الوفد وكانت مهمتي أن أهدنه .

ولقد كان الملك هوذا يملك ثروة طائلة تقدر بملايين وكان رجل أعمال مدهرا يستغل ثروته ويضاعفها بكل الوسائل ولكن أبرع ما يستغل فيه بعض نقوده هو شبكة الجاسوسية المحكمة التي أنشأها والتي كانت توهب بكل الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيما كان اعتماده السياسي والاقتصادي كله كان عليه . وقد قال لي ذات يوم إن جده الكبير محمد علي قال يوم انقضا في الإسكندرية سنة ١٨٢٨ «بصداقتكم لي أستطيع القيام بكل شيء، وبغير صداقتكم لي لا أستطيع القيام بأي شيء» لأنني حينما قلت وحدث بريطانيا حال تشير دهشتي .

والم يعمد على وقت طويل في مصر حتى اصطدمت بحقيقة واقعة وضححة، كان كل أنصار عدم الانشقاق مع مصر يتجاهلونها وهي أنه إذ ما وقعت الحرب فإن مركزنا في مصر هذه المرة سيكون مختلفاً تماماً عن مركزنا خلال الحرب العالمية الأولى ذلك أنه خلال تلك الحرب كان كل الجهاز الإداري الذي أنشأه كرومر قائماً وهي أبنينا وكن الشعور الوطني لازال جديداً على أية حال ، أما الآن فإن علينا أن نعتمد كلياً على المصريين في مواصلتنا وهي كل شيء ماعدا أقية من الموظفين البريطانيين الكبار في البوليس أبقيت لأغراض الأمن الداخلي.. ونتيجة لشعور الشعب السائد نحولاً لم يكن هناك من يقف إلى جانبنا ولقد كان هناك بضعة مستشارين هي وزارتين أو ثلاث ودارات، وكن هناك مفتش عدم انجليزى للجيش المصرى. ولكن كمن من المؤكد أنه حتى في حالة مقاومة الشعب السلبية لنا وهي مؤكدة وقد تتطور إلى أسوأ.. فإن حاميتنا الضئيلة في مصر لن تستطيع الاستيلاء على الموصلات وإدارتها ولهذا خرجت منتجة هي أن جلاء قواتنا عن القاهرة الذي يمكن أن يتم عن طريق معاهدة لن تكون له النتائج الخطيرة التي حاول بعضهم إقناعى بها. وقد كان رؤساء أركان الحرب في لندن قد

قرروا ذات مرة بلا منقشة أن الاحتفاظ بحميمتنا في القاهرة أمر حيوى وضرورى لسلامة الامبراطورية، وذات يوم كنت انريخ على الخيل مع البريجادير كيلي رئيس أركان حرب الحامية في طريق السويس فوجدتُ أن المواصلات ليرة وفنال السويس نظرية خرافية، بل وعلى العكس كانت هناك حجج عسكرية وسياسية دامغة تؤيد ضرورة جلاء قواتنا عن القاهرة ولقد كانت تكتات فصر النير في لقاهرة موبوءة بالبق ولم يكن لدى الجنود أية فرصة للترفيه والترويح، لأن معظم أحاء المدينة كانت محرمة عليهم. أما الضباط فقد كانوا على العكس من ذلك يستمتعون بكل وسائل الترفيه الممكة وكان نادي الجزيرة الفاخر يجعل حياة في القاهرة متعة جميلة لهم، وكان وجود القوات الأجنبية في القاهرة استغرابا دائما للشعور الوطنى، ولاشك في أن هؤلاء الجنود سيجدون أنفسهم في موقف عسكري يائس لو نشبت حرب ووقعوا هم مع شعب محلى معاد في الداخل ودولة أوروبية مهاجمة من الخارج.. بينما المواصلات الحديثة قد جعلت المسافة بين قناة السويس ووادي النيل لا تتعدى بضع ساعات قبيلة جدا .

وبعد دراسة كل هذه الحقائق أرسلت مذكرة إلى وزارة

الخارجية البريطانية.. أوضح الحاجة التي تحتم القيام بمحاولة جديدة وقوية للمفاوضة من أجل توقيع معاهدة، ولقد تحققت أيضا أنه من المستحيل الوصول إلى معاهدة، مع حكومة لا يسندها تأييد شعبي ولم تجد أن هناك عقبة كئودا تمنع من تعاوننا مع الوهد إذا ما كنا مستعدين لإجلاء قواتنا من داخل البلاد إلى منطقة القبال، وجاعى الرد على مذكرتى.. وكان تلفرافا شخصيا وخاصا من الوكيل لادام لورارة الخارجية العمير روبرت هسنستارت يحذرني من أن هناك أعضاء هي مجلس الوزراء البريطانى يثيرهم مجرد ذكر كلمة معاهدة مع مصر حتى تصعدم روسهم بالسقف وأنه من الخير أن أنسى الموضوع وطيف بقدت هذه النصيحة .

وظل الأمر منسيا حتى عاد السير مايلز لامبسون من الإهارة. وخلال مناقشاته معى ومع المستشار الشرقى سير والتر سمارت أو سمارتن كما كنا نسميه وصل السير مايلز إلى نفس النتائج التى وصلت إليها أنا هي مذكرتى إلى وزارة الخارجية ،لبريطانية فى صيف سنة ١٩٢٥ .

ولقد اقتربت عودة العمير مايلز لامبسون مدية حركة عاصفة عنيفة من لإضرابات ومظاهرات الطلبة المسمرة سنة ١٩٢٥

وقد كان رسل باشا يرأس البوليس المصرى وكان اختصاصه مكافحة تهريب المخدرات لا تفريق المظاهرات. وإن كن له من مساعديه الأقوياء الشكيمة خصوصاً الأيرلندى الحذر فيتزبى ترك حير معاوية فى ذلك

ولقد انتشرت عدوى هذه المظاهرات والإصرارات إلى كل الطبقات.. الأفراد المصرى قد يكون رقيقاً مهذباً ولكن مظاهراته مصرية هى خطر مخيف. وقد روى لى ضابط انجليزى فى لبوليس والجيش مصرى قصص عن منظمهرين كانوا يلقون بأنفسهم على الدافع والحراى بلا مبالاة .

وقد أدت هذه المظاهرات لعديفة إلى اتحاد الوفد مع كل الأحزاب الأخرى، ثم مجيء وفد مشترك إلى دار المنوب السامى ليقدم عريضة تطالب بفتح باب المفاوضات .

وتلقفتنا ريادة هذا الوفد الجديد فى نوعه وأرسلنا إلى وزارة الخارجية التى وافقت خلال بضعة أيام على المفاوضات، وعينت وفداً مكوناً من المدوب السامى وأنا وسمارت ورئيساء أركان حرب القوات المحتلة لثلاث

وعقدت معاهدة سنة ١٩٢٦

وعرفت خلالها رعاء المعارضة المشهورين من رجال الوفد

وعلى رأسهم طبعاً النحاس باشا ومكرم عبيد. وقد كان النحاس ومكرم يكوّنان شخصيتين مثابقتين لأن شخصياتهما كانتا تكملان بعضهما بعضاً . كان مكرم ذكياً ذا عقلية خفية صقلتها دراسته في أكسفورد وكان النحاس أقل مرونة منه وأكثر صراحة .

ومن أطرف ما حدث لى أن قابلت حسين باشا فقد وجدت فيه زميلاً قديماً لى في أكسفورد، ولهذا كنت أستطيع أن أتناقش معه السياسة وأتبادل معه أبق الأسرار بطريقة لم أكن أستطيعها مع أحد من السياسيين مصفاً في مصر... ولقد كان مركزه كأمين ثان ثم كأمين أول للملك . يجعل لصلاتي به قيمة كبرى. وقد كان حسين خريج كلية باليول وكان كائن فرقة السلاح في أكسفورد وقد توثقت علاقتنا لدرجة أننا كنا نلتقى يومياً في بعض الأحيان خلال السنة الثالثة والرابعة من وجودى في مصر. ولقد التقينا في مصر كاصديقاء قدامى وكان مفهوم لهذا أن أحدا منا لن يفشى سرا للآخر أو يورطه في شيء . وقد كان الملك فؤاد يدهانه المعتاد في فهم تقدير الناس بقول لى : «إن حسين رجل ضعيف ولكنه على قسط عظيم من الذكاء وهو

أيضا خفيف الدم» وقد كان حمتين صديقا هادقا لسياسة
ولهذا كان من السخرية للاذعة أن تكون نهايته بسبب لوري
بريطاني .

* * *

ومات الملك فؤاد بعد مرض عضال وكان موته نهاية فصل في
تاريخ العلاقات المصرية البريطانية وسرت في جنازته وكنت
طوال السير في سترتي الرسمية أفكر فيما يخزن لنا المستقبل.
وهل نستطيع أن نكت قوى التعصب الوطني التي سنطاع
هذا الملك لقادر العجز أن يكبح حماحها، وأن يكتف وأن
يرسبها في القاع لصلحتنا بأمر وأمرع مما تستطيعه بضعة
الآلاف من الجنود الذين يكونون حامية القاهرة أو بما تستطيعه
سياسة وزارة الخارجية المترددة .

ولم يكن أحد منا قد قبل الملك فاروق بعد ولم يلقه سوى
السير مايلز لامبسون ليصع بقائق فقط.. ولكنني كنت أدرك
وأفكر في حاله وهو شاب محدود التجارب جدا، ولقد كان
فاروق الابن الوحيد للملك فؤاد ولقد رمى في الحريم ولم يقابل
رجلا سوى معلم ركوب أنجليري وقد أرسل قتل وفاة أبيه
ببضعة أشهر إلى لندن، وكانت التعليمات من أبيه صريحة إلى

حاشيته المرافقة له وهي أن مكلف على كتبه ولا يتصل بأحد إلا للضرورة..

وحينما قابلت هاروق لأول مرة بعد عودته من لندن قال لى إيه كان يأمل لو التحق بالكلية الحربية كطالب نظامى وإنه كان يود لو يقضى ساعات طويلة فى المكتبات فى شارع «شارنج كروس» ولكن لم يكن يسمح له بالأتنين ..

وقد كان الملك الصغير الذى كان فى حوالى السابعة عشرة من عمره يستمتع بذكاء طبيعى، وكان ذا هواية خاصة للتاريخ، وكان مولعا برواية النوادر والقصص الطريفة، ولكن كل هذه الموهب مع هذا لم تكن تكفى لتواجه ضغط ومؤامرات بلاط ملكى شرقى. ولقد كان هناك مجلس وصاية راضع ولكن الملك وقع فى مرحلة مبكرة من عمره تحت نفوذ على ماهر باشا الذى أصبح صاحب النفوذ الأول فى السراى، وكان على ماهر رجلا ذكيا جدا ولكنه كان طموحا وكان طموحه يستهلكه، ولهذا فقد وضع نصب عينيه على الفور أن يصب فى الملك الجديد نفس الكراهية التى كانت تفيض بأبيه نحو الوغد .

وكان التحاس يزهو بنفسه.. وكان زهوه هذا أمرا يثير المرح لا لعداء، ولكن على ماهر استطاع أن يستغل هذا وأن يستغل

أيضا المركز الشعبي للنحاس في إيدير صدر الملك.. وقد 'سر
لي صديقي حسنين باشا يوما بأن الملك كان يبكي من الإهانة
حينما كان يلمس في الصحف اهتماما بالنحاس أكثر من
الاهتمام بشخص الملك . وكان النحاس يشير ملل الملك بحطبه
الطويلة الرنانة حتى في مقابلاته الخاصة، كان يفيظه شقته
الطلقة في نفسه، كان النحاس وهاروق يشبهان الملكة فيكتوريا
وجلاستون قطانا كانت تشتكي من أنه كان يخاطبها كما لو
كان يخطب في ميدان عام .

وفي هذا الصدد كنت أعطف على الملك لأنني كنت أقاسي
نفس الشيء مع النحاس، وكلما ذهبت لأناقش معه موضوعا
كان علي أن أستمع إلى خطبة حماسية تستغرق نصف ساعة أو
ساعة عن فلسطين.. قبل أن أفقد إلى الموضوع الذي جئت من
أجله .

ولقد كان أطرف حوار هو ذلك الذي كان يدور بين النحاس
وبين محمد علي رئيس مجلس الوصاية وولي العهد وعم الملك
كان محمد علي أميرا واسع الثراء يعيش بقلبه وعواطفه في
الماضي وكان يروي لي وهو يادی الحزن أنه وهو صغير كان
هناك ثلاثون ألفا.. أي كل رجال السراي والحكومة يتكلمون

العة التركية كلمتهم الأصلية وأن أول ما ينمده ويحلم به وما
يود لو يستطيع أن يحققه هو أن تعود مصر إلى الخديوية
القديمة في ظل لتبعية لتركيا، وإذا تعذر هذا فهو يتعنى نظام
كرومر وعهده، وكان محمد علي يكره الوحد ولكنه كان يحتقر
الرعماء الآخرين الذين لاجندوى لهم والذين يمثلون أحزابا
وهمية، والذين يكرمون وزارات القصر لمتلاحفة وكان دائم
الأسى على غلطاتها السياسية والسيكولوجية التي أدت إلى
التدهور التدريجي للنفوذ البريطاني في مصر .

* * *

وما لبثت كل هذه القوى أن أدت إلى قسيعة بين النحاس وبين
الملك.. ولم يدهشنى أن يبدأ الملك فاروق أهم عمل سياسى له
عند بلوغه سن الرشيد بإقالة النحاس باشا واستبداله بمستشاره
الأريب على ماهر باش

وحكمت مصر مرة أخرى وزارة من وزارات القصر وأقصى
الوفد إلى صف المعارضة ثانية .

وبعدها بقليل وفي أوائل سنة ١٩٣٨ نقلت من مصر لأرأس
المكتب المصرى فى وزارة الخارجية وذهبت لأودع النحاس

وقاطى مساعفته وترجانه المعهود، ولكنه شى حمة عيفة على
الحكومة البريطانية لى تأمرت على إقالته.. وكان مستحيلا أن
أقنعه أن أحدا لم يأسف مثليا على هذه الإقالة .

◈ رحلة في قلب نهر

«هذه الصور أثارت أكبر ضجة عرفتھا محافل الهند.. ولم
يسكت هذه الضجة إلا نهرو بشخصه عندما قال
«هذا هو أنا» وكريشنا مينون عندما أعلن: هذه هي نفسي
التي أريد الهرب منها.. إنها قصة فتان يكتب التاريخ بخطوطه
والوانه».

لم يحضر نهرو إلى عباس لرسمه إلا «لسوتيس حوحر ل»
الفتان الأصم الذي يسمونه لهذا «الرسام الوحيد الذي عرف
نهرو من لداخ» وقد بدأت اللوحة ونشأت بمحض الصدفة
خلال عنوان السويس وكانت لحظات العراء الوحيدة لنهرو هي
الجلوس إلى سوتيس والحديث إليه . «ولم يكن هناك رجل
مهموم جداً ثقيلاً مبرحاً مثل الرجل الذي كنت أرسمه» كما قال
سوتيس.

وقد نشأ سوتيس وولد طفلاً أصم لم يستطع أن يتم دراسته
لعماته فانقطع عن مدرسة وهو في الثالثة عشرة وأخذ يمضي
أوقاته ويتسلى بأساتة هي لرسم وهي التجول بين حقول السجاب

وعلى ضعف أنهارها وعثر عليه أحد أساتذة الرسم وأدخله أحد معاهد الفن في لاهور وكانت عاصمة الثقافة في الهند القديمة والحديثة، وحيما هطلت موهنته ونضجت روحه واستعد لتقبل لحياة قاحله وصدمته بالنسبة الكبرى التي صدمت ملايين لهود وعاش كل الهول، الأكبر والفرع الذي صاحب التقسيم ورأى بعينه المذبح التي شملت الهند و الآلاف تدبح بعضها والملايين تفك كنوحوش المضارية بالملايين ورأى «الذين كسيو حريتهم بالحب وعدم العنف يكشفون عن قناع وشعبي قاتلة كانت تكمن في صدورهم».. ورأى «حش النساء والأطفال و لصيبة بلنات والآلاف ملقاة على أرضها لاهور وفي كل قرى وحقول البساج» ورأى الهند كلها، «غندي وبهرو وجنة ولياقت والكل عاجزون عن أن يصدوا هذا الطوفان.. الذي انفجر ككل براكين الشر في الإنسان».

وكما يقول «عشت كل أهوال التقسيم ولم يمضى الصمم من أن أحس الهاوية المريعة ومر أن أسمع الزلزال الذي عصفت بروح الإنسان، ولم أكر لأستطيع أن أجيب كيف أو لماذا وقعت المأساة ولم كن أقصرها إلا بأنها شرط من شروط الحياة ويتر مذبح البهجاب قد أظهرت كل حطاي الإنسان، وكنت أرى

الضياع لحياة المبددة حولي ليضطرم الألم العنيف وكل
الشياطين والسنة الجحيم والأشباح المخيفة التي ترها في
لوحاتي هي لأنى عشت كل هذا ..

ورسم سوتيسن جوجرال كل لاساة وظل الكسوس لا يفارق
حياته إلى الآن وكان احتجاجة الوحيد عليه هو لوحته . ولهذا
صب فيها كل الخوف والفزع وكل السخط والثورة وصب فيها
"يضا كل العطف والحب والشفقة لتي يشعر به نحو لإنسان.
وحينئذ أقام معرضه الأول كان حدثاً من أحداث الفن في الهند
ورأوا جميعاً لحدث الوحيد الذي كانوا يريدون أن ينسوه ولا
يروه أبداً ، وسجله سوتيسن بحيث لا يشعرون بالخزي و لعار
ولكن بالعطف والرتاء وطلب لفران لأنفسهم.

ورأى معرضه سفير المكسيك في الهند وقبل له إنك ترسم
كما يرسم ديمودي ريفيرا رساما العظيم ولا بد أن تذهب
إلى بلادنا وستجدها وطناً ثانياً لك... وكان سوتيسن يريد أن
يخرج من الهند ومن نفسه وأن يكتشف عالمٌ جديداً مذهب إلى
لمكسيك وعاد بعد عامين وكما يقول «أقمت أول معرض لأعمالي
بعد عودتي من بعثة العامين في مكسيكو وتحدثت لصحف
كثيراً وكتب النقاد بإسهاب وشتد الجدل في دولتي الفن وفي

أحر يوم زرت أنديرا عاصي المعرض وبعد أن طافت به قالت لي
لاند أن يرى أبي هذا المعرض ولنهاية المعرض ولارتباط صالة
العرض بفنانين آخرين طلبت أنديرا أن أحمل اللوحات كلها إلى
مزلهم ليرها جواهر لال هناك. وتم هذا بالفعل وفي ذلك الوقت
كانت مدام «صيات هس» تنزل ضيفة عندهم. وكانت مس
ماينو حاكمة ولاية البنغال وابنه ساروجيني نايدو الشاعر
والمجاهدة المشهورة ورأى الجميع اللوحة وطلبت إلى مدم صيات
يات هس أن أقيم دعوتها للصين وأعرض هناك وقلت لها إني
أقمت عامين كاملين خارج الهند، وأريد أن أبعد العربة وأبقى
هنا بعض الوقت وطلبت إلى مس ماينو أن أذهب إلى البنغال
حيث لا تزال المأساة حية وبألوان فاقعة ولكنني أريد أن أظل
في بلدي تراب البنجاب وأنهار البنجاب وهواء البنجاب»

«وبعد يومين اتصلت بي أنديرا وقالت إن والده يريد أن
أرسم صورته وكانت مفاجأة كبيرة لأن جواهر لال رفض أن
يقف أمام رسام أو مثال، ولأن كل رسام في الهند يريد لا شك
أن يرسم جواهر لال لا لأنه رئيس الوزراء ولكن لأنه الهند
الحديثة»

وفي اليوم الذي تحددت لأرسم جواهر لال بهرو

واستظرت بعض لوقت ثم ما لبث أن دخل مهمومٌ هماً ثقيلاً
حتى لم أر في حياتي رجلاً مثقلاً بالهم مثله في ذلك الصباح
وقال لي إنني أشعر بخوف على السلام وعلى مصير الإنسانية
كلها لم أشعر بمثله أبداً.. إننا جميعاً في خطر

وعرفت لأول مرة بنياً لعنون عبي السويس والهجوم على
بلاتكم وجلس وأخذت تتحدث حديثاً هويلاً حول مصر وحصارة
مصر وبور مصر وواجب الهند وحينما انتهت لخصلة كان يشعر
سبحسب الارتياح، وبدأ من ذلك الصباح معركته ضد حرب
السويس وخرجت مصر منكسرة فأحسست أنه انتصر
شخصي له.. وكان فرحاً كطفل برى.

«ولقد أتيج لي خلال هذه المدة أن أرى حوهر لال في كل
حالاته وهو ثائر عاضب وهو متكبر متعال وهو مشعتر وهو
حزين متألم وهو خالم متصوف، ورايته بعامل الأسف، الكبيرة
والرهيبية باحتقار وبعجرفة وبضيق شديد وسمعته يبدى لي أنه
هي كثير من الناس بصراحة ويتحدث عن الهند ومشاكل الهند
كما لم يعرف أحد غير أقرب المقربين إليه».

وتكلمت وأنا أرسم نهرو أن هذا رجل فنان ضد الطريق إلى
السياسة وأنه لا يكره شيئاً مثل الطريق الذي سار إليه وأنه لو

خَبَّرَ مرة ثانية لاختبار الفن وأُتِي لأذكر ما قاله لي آخر يوم
حينما انتهينا ، أن لهند والإنسانية كلما صارت للبقاء فإنها
تبقى وتستمر بالفنانين لا برجال السياسة..
ورسعت لوختين لنهرو..

كانت الأولى للرجل «الوحيد» الذي يقاسى ويعاسى فى وحدته
والمثالى الذى يرتفع إلى عالم لا يجد فيه أحدٌ يفهمه أو يشاطره
'حلامه وأفكاره، ولثانية للرجل الشائر الذى يرى الواقع ويقارنه
بأحلامه وما يريد فيحط بالتشتت ويمصه هذا الإحساس وقد
رسمته فى هذه الصورة يحمر الوردة التقليدية ولمفرم دائماً
بوضعها فى عروجه ولكنها وردة تحولت إلى حديد جامد وفوقه
سما مقلعة وأمامه حقول جرد ... وبوجه ملأته تجاعيد الرجل
الحساس الذى أرققته أحاسيسه لأنه يرى الأشياء ويص
بعجره عن تعبيرها كما يريد . كان نهرو فى هذه اللوحة يذكرنى
د ثب بيودا بهبط عليه الوحي وتصىء نفسه بالمعرفة ويمحه
الوحي والمعرفة القدرة على رؤية الأشياء كما هى وكما يجب أن
تكون، ولكن يعير أن يمكن القدرة على تعبيرها وخلال هذه
اللوحة كنت أذكر دائماً كلمة بود . إن المعرفة قلق عظيم.
وما اللوحة الثانية فكانت صورة رجل فى حرب حامية

مستمرة مع نفسه خبط أحلامه هي التي تقبّد يديه وأفكاره المضطربة هي التي تدكى الحجب حوله وصبره «الهرقلي» الذي ينتهي دائماً كما لا يتمنى ويبحث نظرة الحزن العميق في عييه كان نهرو يبدو لي في هذه الصورة.. «روميثيوس المقيّد» . والذي لا يرى فكاكياً لقيوده . وحيماً انتهت من هذه الصورة قال لي نهرو «هذا أنا تماماً . إن الإنسان دائماً مثل جمل الثلج.. يطغو القيل منه على السطح و«ما معظمه هيظل تحت الماء» . وأنت يا سويتيس رأيت الصورة كاملة»

وحيثما رأى النقاد صورة نهرو ثار أكثرهم وقالوا أنت متشائم وهذا ليس نهرو وهذه صورة دائمة لنهرو ولكن جواهر لال أسكت النقاد جميعاً وقال «سويتيس على صواب» وعلّق الصورتين في بيته إحداهما في غرفة المكتب ولثانية في غرفة الاستقبال.. وقال لي هكذا حتى أرى نفسي ولا أنساها..

وخلال رسمي لنهرو كانت انديرا نشترك معي وكنت أتأمل وجهها كثيراً وهويلاً وكان وجهها يوقظ في نفسي دائماً . لشعور بالحنان والرحمة . كنت أحس مدى الصراع القائم في نفس هذه السيدة التي يعتقد الناس جميعاً أنها مرحة سعيدة وكنت أحس

نشبتها المستعيت بالحيوط الأخيرة للأمل والنور ومدى الشجاعة والإيمان الذي يبعث فيها الشعور بالخوف والعجز.. كنت أحس بالرحمة لهذه السيدة لأن المعركة في نفس أنديرا كانت أشد حدةً معها داخل حرب المؤتمر، وكانت تنعكس كاملة في هذه النفس لرقيفة ورسمت أنديرا كما رأيتها بكل التيه والضياع وكل العنان والشجاعة والحد.. وكما ثار لنقاد على صورة جواهر لال ثاروا لصورة أنديرا . واتهموني بأنني أرى الآن والاسة من خلال نفسي أب.. ولكن أنديرا وقعت إلى جانب لصورة وقالت هذه هي الحقيقة وعلقت الصورة في عرفتھا.

وكان هناك شخصيتان أخريين أرت أن أرسمهما لأهم يعكسان الهدد وملحمتنا الحاضرة ويكملان صورة جواهر لال وأنديرا.. وهما كريشنا منون ومولانا زاد.

ورحب كريشنا منون وطرب لفكرة رسمه وليس هناك رُق حساساً وأدق سهماً للفن بعد جواهر لال مثل هذا الرجل الصارم الجبار المشتعل على الدوام.

كان كريشنا منون يشبه لي دائماً صخرة صلبة مضطربة بالدار في داخلها، وكنت أحس بالتناقض الكبير الذي يمزق نفسه بين الاشتعزاز العامر بالخيف مما حوله وبين العطف

«العميق الشامل على ما حوله أيضاً وكان يبدو لي أحياناً وكأنه يريد أن يقف كشعشعشون ويهدم المعبد عليه وعلى أعدائه، لأنه لا يستطيع أن يطرد المر بين والصيرفة بالسيف وبالسوط وقد تصادقنا أنا وكريشنا منون وكان يأتي دائماً ليروى مرسى ويقضى وقتاً طويلاً معي، وكان يبدو لي حينما يدخل الاستديو وكأنه حيوان برى انقلب إلى قط أليف مستأنس ونسي السياسة والجزالات والجيش ولم تعد الحدة سوى ألوان وخطوط وأفكار، وحينما انتهت الصورة جاء الكثيرون ليروا كيف رسمت كريشنا منون وكيف استطعت أن أقنعهم بنفسي وهل يمكن لأحد أن يقتحم هذه القلعة المغلقة، وكل شيء يتعلق بكريشنا منون كانت الصورة موضع جدل عيف ربما لم تتركه صورة من قبل، وتهاافت كثيرون على شرائها وعرضوا مبالغ هائلة ورفضت وقال كريشنا منون إنني لا أستطيع أن أدفع لها ثمناً ولا يمكن أن تحرم نفسك من ثمنها، وأنا عشت التجربة ولصورة وعشت نفس الحقيقية معك ومعها ولا بد أن تتبعها، وحينما عرضت عليه أن يحتفظ بها بلا مقابل وألححت عليه رفض وقال «يبنى وبينك ليس لدى شجاعة جواهر لال لأواجه نفسي كل يوم وفي عرفتين.. إنني أحب كثيراً أن أنسى وأهرب من نفسي»

وكانت الحلقة الرابعة في الملحمة هي صورة مولانا آزاد ، وكان يمثل لي قمة كبرياء الهند وعزتها العقلية والروحية وكان يبدو لي وكأنه يعيش متكاملًا متصوفاً على حافة قمة شاهقة ويرى الناس حوله صفاراً أغبياء ولا يستحقون العناد ولا جدوى من تغييرهم أو إقناعهم، وكنت أتصور فيه السوير من كما رسم بيتشه وكان يجتذمني فيه نظرتة هذه وإرادته وأحس أنه يعيش «فوق البشر» وكنت أحس أن لهذه النظرة ما يبررها من تطوره العقلي والروحي ومن وعيه وعبقورية روحه ومن فرط حساسية نفسه

وحيثما فرغت من صورة مولانا آزاد واجهت مرة أخرى ثورة النقد وقالوا هذا ليس مولانا آزاد وهذه ليست نظرتة للناس ولكن مولانا آزاد مات وبعد وفاته بأشهر صدر الكتاب الذي لم يشأ أن يكتبه في حياته وكتب قصة استقلال الهند كما رآها وكما عاشها، وكتب رأيه مصرحة في كل الناس وكان تأييداً تاماً لكل ما أردت أن أقوله في لوحتي.. عن مولانا أبو الكلام آزاد.

وسألت يويتسن جوجرال ليحبيب بإلهامه.. «إلى أين تذهب الهند وكيف تخرج من مفترق الطرق الذي تقف في وسطه؟» ولا شك أن الفنان أحس القلق وراء سؤاله لأنه قال «إنني أشحن

رسومي بالسخط والمأساة لأجعل الناس يشعرون بالذنب لأسى
أريد أن أثير الرحمة وأن ما يحركنى هو نوع من العطف ونوع
من الثقة التامة فى الإنسان، ومن الخطأ أن نظن أن مهمة الفن
هى أن يجعل الناس سعداء.. إن الفن لا يجعل الناس سعداء أو
تساء بل الفن عبء أن يثير الناس وأن يرتفع بالإنسان حتى ولو
كان فن المأساة. إن الفن لا يقدم أنجيلاً ولكنه يحرر روح
الإنسان لكي تستطيع أن تجد الحقيقة بنفسها...»

«إن الفن يخاطب الروح وإذا ما استطعت أن أثير أرواح
الناس فقد أدت مهمتى وأنا أعتقد أن العمل الفنى لا بد وأن
يحوى عنصرين هما الفكرة والتعبير والفكرة التى تدور حولها
كل لوحاتى هى الإنسان، وأنا أعبر عن عظمته وتعاسته وصراعه
الدائم فى سبيل التقدم وأعبر عن الأمل والأمل هو أكبر ينبوع
للفرح بالحياة وكل هذه اللوحات تحفل بالأمل والأمل هو الذى
يجعلهم يكافحون وهو الذى يجعلهم يستمرون فى المعركة.. وهل
استشهاد الإنسان، دلالة الأمل أم اليأس؟. والذى وقف وقال
أبتاه اغفر لهم فإنهم لا يعرفون ما يعملون .. هل زرع اليأس أم
الأمل؟.

وتذكرت كلمات سويتسن جوجرال فقد كنت حاصراً حينما

سأل أحد الصحفيين الهنود نهرو يوم عيد ميلاده.. بمناسبة
سوفك السبعين واحتفالك بعيد ميلادك هل تشعر باليأس أم
بالأمل وهل تشعر أنك بددت حياتك أم حققتها؟

وقد نهرو ربما كان في أمكانكم أن تحكموا أستم ولكن ما
أستطيع أن أقوله هو أنني ليس لدي إحساس بالصياح أو
اليأس والتشقت بل بالعكس أحس أنني حققت حياتي ولم
أنددها ، وأرجو أن لا يكون وجهي يعكس معنى آخر.. ولكن هل
حققت ما أريد بالطبع لا ويكل تأكيد لا وربما من وقت لآخر
أحس أنني حققت شيئاً، ولكن على العموم لم أحقق ما أريد ولا
زلت بعيداً.. والذي يعوضني هو أنني أجد لذة في مواجهة
الصخور والمستحيلات والعقبات وأجد لذة في مصارعتها
والسقوط تحتها أحياناً والوقوف على قدمي دائماً.. إن هذا
يعني الحياة مقاومة رائعة».

هناك أمل في الهند..

◊ مذكرات سجين

بقلم

فيجايا لاكشمي بانديت

شقيقة نهر وسفيرة الهند في أمريكا

١٢ أغسطس ١٩٤٢:

كانت الساعة الثامنة بعد منتصف الليل حينما استيقظت من
نومي المفروعة وأضأت النور فوجدت «سندا» خادمي واقفاً على
هافة السرير.. ولما سألته ماذا يفعل؟ قال إن البوليس قد وصل
وأنهم يريدون أن يروني

ولقد كانت رأسي ساعتئذ ثقيلة مضطربة ونموج بكل
الأحداث التي تعاقبت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية،
وكان الرصاص الذي حصده مواكب الطبية لا يزال يدوي في
أذني. وكانت وجوه الذين سقطوا ووجوه الذين حملتهم إلى
المستشفى لا تزال ماثلة أمام عيني.. كل شيء في كان مهدماً..
عقلي وجسدي وروحي على السواء . وكانت الحياة وكل صورها

تبدو مهترزة معكوسة أمامي..

وكانت البنات مائعات في الفراش فلم أشأ أن أوقظهن..
شهدت «لبكاء» و«تار» أحداث الأمس وحينما أوتا إلى مخدعهم
كانتا منهكتين تعستين ولا أظن أن ما رأته سينمحي قط من
ذاكرتهما..

وخرجت إلى بهو الدار وأحسست أن هناك حشداً من الجنود
و لضباط . وب إن أصوات النور حتى دهشت. فقد وجدت كل كمن
قد امتلأ بهم.. بعضهم في سترهم الرسمية وبعضهم في ملابس
عادية . ورأيت شرنمة منهم تصعد إلى الفرايدة حيث تنام
البنات. فعضبت وأمرتهم أن يعودوا وطلبت إلى الجميع أن
يعادروا المكان وأن ينتظروني في الحديقة.

ويبدو أن حكمدار البوليس قد ضايقه هذا فقد قال لي إن معه
أمراً بالقبض على فرددت عليه قائلة ولكن أي ضرورة لكل هذا
العدد من الجنود المسلحين للقبض على سيدة عزلاء وفي مثل
هذه الساعة الشادة ورد قائلاً إن معه أيضا أمرٌ بتفتيش المنزل
كله فتركهم يفعلون ما يريدون وذهبت لأستعد لسحن.

وفي الواقع لم أكن أتوقع أن يقبض على ولهذا كان الأمر
معاجاة سخيقة فلم يكن في البيت أحد مع البنات ولم يكن في

الوقت متسع لكي أرتب لهم شيئاً وقد وصلت مدير أبنه أحي من يومئذ منذ بضع ساعات فقط، ولهذا صنعت لكي أقبلها قفلة وداع ولكي أوصيها بالبنات وبعد حديث عاجل ذهبنا لننقلهن ونخبرهن بالأمر.

وكن شجاعات باسلات كالعادة و«دركن الموقف فوراً فتقبلته هي بساطة وفي حماس بي وبعد لحظات كن ساعدي هي حزم حقائبي.. و«جرت «ليكا» إلى المكتبة وأحصرت بضعة كتب دستهم هي حقائبي ولكن «رينا» ظلت ساكنة تنظر إلى نظرات ساهمة بعينها الواسعتين الثقبتين بالنوم وكلب نظرت إليها أما - حارت شجاعتي فقد كانت «ريت» صغيرة والعالم كبير ولا أحد ليغني بها.

و«كنما» حسيت هي بما في نفسي إذ ابتسمت قائلة «هل أذهب إلى السجن معك يا ماما» وأزحت الكلمة كل همومي وضحكتنا جميعاً وأصريت أنا أقبها وأحتضنها بحرارة وقالت تارا «سنودعن يا مام في الحديقة ليري النوليس كيف تفعل أسرنا هذه الأحداث»

وخرجن جميعاً معي إلى الحديقة وحيما اقتربت من «بوليس» قلت «ليك» في صوت عال «مام العريزة لا نهتمى لشئ»

سأعنتى أنا بالجميع» وصاحت «تارا»
«وداعاً يا ماما سنحتفظ بالعلم مرفوعاً وكانت «تارا»
منحمة مرفوعة الرأس تشتغل عيهاها سريق غريب وتعقت
«ريثاء الصغيرة بي لحظات ثم قالت فى صوت قوى حمون
«ماما.. أعنتى بنفسك وسحارب نحن الإنجليز خارج السجن».
ووجدت على الباب فى انتظارى ثلاثة لوريات مشحونة
بالجنود، ووجدت كل الشوارع والطرق التى تؤدى إلى المنزل
محاصرة وطلب إلى الحكمدر أن أصعد بجانبه إلى أحد
اللوريات فصعدت.

ولقد كانت الأحكام العرفية معلنة فى المدينة ولهذا كن الظلام
يسود كل شىء وكان مكهرباً عنيفاً مشحوناً بالاحتمالات . وكلما
نهذت السيارات إلى شارع تدافعت إلى رأسى الأحداث ليس
فقط أحدث الأمس وإنما كل أحداث العشرين عاماً الذهبية.

وحينما وصل الموكب إلى جسر «الجمعة» أوقفنا الحراس
ليتأكدوا منا ولدهشتى طلبنا مدة حتى اقتنعوا وتركونا نمر.. وقد
عجبت وأنا أشاهد هذه الدقة أى ولاء خسسب يزرعه
البريطانيون فى نفوس خدمهم وعمالئهم

ووصلت إلى السجن فى الساعة الرابعة صباحاً ويبدو أنهم

لم يكونو على علم بزيارتي فقد شرت مشكلة انتهت بأمر قانوني
إلى الجناح الذي أعرفه جيداً

وكان الصداع بفك برأسى ومفاصلي تكاد تنهدر فلم أستصع
قط أن أنام وظللت أفكر طويلاً فى «ليكا» وأخشى أن يكون
مصيرها مثلى إلى السجن وفى المساء حاضنى قيس أن تنام
وأخذت تتحدث فى حدة قذلة.. «ماما.. سيمضى وقت طويل قبل
أن أستطيع أن أنسى ما رأيت اليوم» وسيمضى وقت طويل قبل
أن أستطيع اقتلاع الحقد والكراهة الذى يطغى على كل حواسى.
إن الحياة لعادية الطبيعية قد انتهت بالنسبة لى.. ويجب أن
نمضى فى الطريق وحتى النهاية..

أول سبتمبر

إن الأيام هنا طويلة طويلة. لا ينتهى ويبدولى أن ليل
السجن أكثر ساعات من ليل الحيدة بل إن الرمن هنا يطول
أكثر مما يجب إن كل يوم شهر وكل شهر سنة وكل سنة
بقرن كما قال جواهر لال.

ولقد كان اليوم عيد ميلادى وجاء ضابط السجن يهنئنى
ويسألتنى كم عمرى؟ وقلت له لا أعرف وأنا حقاً لا أعرف
إننى أحس وكأننى عشت خلال عدة قرون طويلة طويلة.

ولقد أخذت أتذكر اليوم ما قيل لي يوماً إننا لن نستطيع أن ندرك الزمن خلال كرة من الزجاج أو خلال صفحات يوميات، وإنما خلال أرواحنا . وإذا ما متعزقت أرواحنا في سبات.. حثم الزمن وطال . وإذا ما استيقظت واضطربت يوماً بالأسى ويوماً بالأمل ويوماً بالهفة فقد نعمل ساعة في ثنابها ما لا تحميه عشرات السنين الجافة

١٥ سبتمبر

سي أتطلع الليلة إلى أمسية جميلة في صفحة كتب يدع أعنته لي أديراً هو «أحمل رسائل التاريخ» وأما أريد أن أستغرق كل وقتي في شيء لأنني لا أعرف كم تمتد مدة السجن هذه وأحياناً يغلبني الحنين إلى البيت وإلى السات. يجب أن أقهر هذه النزوات.

١٦ سبتمبر

إن تصور الحياة بغير كتب أمر فطبع تعاماً كتصور الحياة بغير رسائل.

لقد قرأت في مقدمة الكتاب أمس «إن البريد هو سوى الحياة الوحيدة وصل إلى الحياة ساعة يريد قلن يفتن حماساً للحياة أبداً»

وما أظن أن هناك أحداً هي الحياة لم يشعر هذا الشعور يوماً. وما أظن أن أحداً مما لم ينتظر يوماً هي لهفة ساعي البريد بحمى إليه رسالة.. رسالة واحدة فقط.

أكتوبر

إننا نعطي الطعام أهمية أكثر مما يستحق وهذه حقيقة لا نعرفها إلا هي السجن. ولقد صممت اليوم على أن أطرح لطعم من حياتي . فلقد مرضت وأن أحول أن أطهى طعامي وعلى موقد فطري ويمواد عربية يسمونها تموير. ولم أحد سوى أن أطرح فكرة اطعام بهائياً وأن أكتفى بالخبز والشاي

والشاي في السجن شيء لا يصدق ولقد كانت نجاريس في الشاي هدية ومتفاوتة، وهي تتراوح بين الشاي المعطر الذي كانت تبعث به إلى مدام تشيانج كاي شيك وبين الشراب العسلي الذي لا يوصف والذي تجرعه خلال الانتخابات.

ولكن شاي السجن تجربة فريدة لم تمر في حياتي من قبل وأحياناً يهيا لي أنهم يزرعونه فقط وخاصة لمساجين..

أكتوبر

أخبرتني السجانه اليوم أنها قد خصصت لي حادمة من السجينات العاديات تساعدني في لطهي وفي تنظيف مرافقي

وجاءت السجينة وكان اسمها «دورجي» ومنها عرفت أنها في
 السادسة والعشرين وأنها تقضى حكماً طويلاً لقتلها زوجها،
 ولقد كانت «دورجي» سوداء كالحة ولكنها كانت سمحة لطيفة
 المعشر ومهذبة حتى لقد أدركت فوراً أننا سنصبح أصدقاء
 وأخذت «دورجي» تحدثني حديثاً طريفاً عن السجن وعن
 قبيحه وموازيمه الاجتماعية ومنها عرفت أن لكل مكان حتى
 السجن أصوله وحدوده الدقيقة، فقد عرفت مثلاً أن القاتلات
 يتربصن على قمة السلم الاجتماعي ومن تحتهن السارقات ثم
 النشالات ثم المحتالات ثم مريعات النقود ثم هي الدرك الأسفل
 النعيا وتاجرات الأعراس
 ولقد فهمت ساعتئذ ما كنت أسمعه حينما كانت تثور ثائرة
 السجينات سنة ١٩٣٢ وتقف إحداهن متهددة وتصبح «كيف
 تخرجين على معاملتي كما لو كنت سارقة» إنني هنا بحكم
 قتل».
 ولقد كنت أول ما سجنتم سنة ١٩٣٢ أضاف من هؤلاء
 النساء.

ولكن بعد أن عرفت «دورجي» تغير فهمي للإنسانية كثيراً
 وذات يوم خلال الحديث، وكنا مجلس كثيراً لنشرثر روت لي

«بورجى» قصتها وهى قصة عادية قتلت زوجها لأنه يضربها ويهملها ويحرمها من الطعام، وروت لى كل التفاصيل الكريهة المرعبة بشغف وكأنها تستمد نشوة عميقة من الذكرى . تزداد وتعلو كلما ذكرت كيف فجعت حماتها القاسية فى اسها الوحيد وتركت «بورجى» ولداً فى الثامنة من عمره ودخلت السجن ببيت فى الشهر السادس من عمرها وماتت البنت بفعل السحر لأسود كما تقول . ولكن الولد لا زال حياً ، وهو الآن فى الحادية عشرة من عمره ولم تره مرة واحدة منذ سحبت وفى كل يوم كانت تتفاسها نوبة تشنج ويكاء عنيفة على ابنها الذى لم تره واجلس اما بجانبها لأسرى عنها .

١٢ نوفمبر

استلقيت على سريري . وأخذت أنظر إلى السماء وأنامل النجوم إنها تمنحنى دائماً شعوراً بالطمأنينة فهى ساكنة هادئة لا تعبر من كل ما نراه من حماقات البشر ولكنى أحبها أسمع صوت الطائرات . وهذا الصوت يثيرنى ويسبب لقلقى والعذاب فى نفسى . ويحلمنى أريد أن أحطم هذه القضبان.. إن من الحماقة أن يوضع البشر فى أقفاص إن هذا لا يحل أية مشكلة أسوأ .. إن العالم يسير فى حلقة مفرغة ويعود دائماً إلى

حيث بدأ. أي معنى للتقدم إنها مجرد كلمة. مجرد كلمة

ينالير

كانت صدمة كبرى لى أن أعرف اليوم بموت «مهاديف ديزاى» فى السجن بالسكنة القلبية.. ولقد قضيت يوماً تعيساً أليماً . ففقت فيه كل سيطرتى على نفسى و أخذتُ بكى.

إن صور حياة «مهاديف ديزاى» تتتابع أمامى وأستطيع أن أحس أى عالم ضيق لا يحوى «مهاديف ديزى» وأنتى أفكر فى «بيرجا» روحته واسئها لصغير.. ومادا يفعلان الآن و«بابو» (عائدى) فى السجن وليس لهم أحد سواه.

(مهاديف ديزاى) كان (سكرتير عائدى).

ولقد ظللت طوال الليل ساهرة لا أنام و ستعيد كل لأحداث التى تصلبنى به.. ولقد رأيته . وكثما بالأمس وهو يدع إلى بنسخة من «المودرن ريفيو» المجلة الجديدة ويطلب إلى أن أقرأ مقالاً لصديق له صديق شاب لامع من أدكى الشبان وأحبهم إليه، ولقد كان هذا عام ١٩٢٠ وكان عنوان تحت أقدام الجورو «المعلم» وكان لكاتب يدعى «ر نجيت پنديت» ومنذ ذلك الحين وخلال اثنين وعشرين عاماً وأنا روجة «الصديق الشاب اللامع» إن موت «مهاديف ديزاى» فاجعة أليمة «لرانجيت».

ينام.

قرأت اليوم ذكريات «حفرى مونسلى» عن السجن ، وإن
السجن مقبرة يدفن فيها لناس أحب ، وترى فيه البشرية عارية.
وقرأت له قصيدة تقول.

لقد رأى وهو يسير فى حقول باشا زلزاة فيها سجين وحيد
وفرح الشيطان

فقد أوجت له بسجر مبتكر حديث لحهم
واسئ أتمنى أن يزور الشيطان زمائى فإنه سيجد الكثير
ليقتبسه من سجون البريطانيين فى الهند
مارس :

تناوات فنجاناً من الشاي هذا الصباح وتعددت فى سريرى
أستريح وجاءت «بيرنيما» و«كالى ديفى» و«مهاديفى تشوبى»
و«لكشمى بابات» واثنان من طالبات الجامعة لصغيرات هما
«فيد يافانا» و«جوفيندى ديفى».. وجلسنا نتحدث أن السجن لم
يعد مقبرة بالنسبة لى هذه الأيام فقد وفد عليه فى أسابيع
الأخيرة كل من أعرفهن.. حتى «ناريسى» المعجوز التى تقضى
الليل ونصف النهار تلو أسفار الجينا والقيدانقا وتؤنبنا لأننا لا
شاركها.

وسمعا فجأة ضجة فى فناء السجن وقامت «بيرثيف» لتطل من النافذة وما لبثت أن صاحت تئابينى، ولما أطلت رأيت «ليكا» متلعة بعدد من عقود الورد وقد سارت متهلة فى فناء السجن ووراها زينب السجانة وصف من الجنود.

وظننت أنها جاءت لزيارتي وإن كنت استعريت كثرة عقود الورد ولكن بعد لمحات كانت «ليكا» فى وسطها تعلن فرحة مرهوة أنهم قد قبضوا عليها.

«ليكا» فى السجن إذن صح ما توقعته هذه الطفلة التى لم تعرف بعد الحياة.. فما بال السياسة

وجلست «ليكا» تروى بفخر كيف قبضوا عليها وكيف جمعهم يتنظرون ليلة كاملة وفى البرد القارس حتى أمسكوا بها.

وجلست أستمع إليها وهى تتحدث.. وأخذت أتأملها. يوم ولدت.. ثم وهى طفلة فى سنتها الأولى.. وأنا بجور سريرها والثلاثة أشهر الطوال أهلى وأبكى لتشفى من مرضها.. ثم وهى فى الثامنة من عمرها ويوم قبضوا على أنا ورايجيت أביها ويوم ذهبت نودعنا على محطة القطار. لقد كانت يومئذ تحمل علماً كبيراً أطول وأضخم منها.. ولما قلت لها «لا تحملى هذا العلم الكبير يا عزيزتى» قالت «هذا يخيف البوليس يا ماما».

ثم «ليكا» منذ أشهر حينما احتفلنا بعيد ميلادها الثامن عشر وكانت تضطرم سعادة وحيوية وتبدو كأنها تريد أن تعيش كل لحظة وأن تنتزع من الحياة كل متعها وأخيراً «ليكا» التي أمامي.. لقد تغير كل شيء فيها «إن الحياة الطبيعية العادية كما يعرفها الناس.. قد انتهت» لنفسة لنا «ولابد أن يمضي في الطريق حتى النهاية».

لم يكن هناك مناس من أن تأتي «ليكا» إلى هنا لا مناص لنا جميعاً.. من أن نأتي إلى هنا.

◊ يوميات معالي الوزير
«من السجن ذهبت إلى الوزارة»

تسعت صباح اليوم مراقبة من البانديت.. «جولته بالآ بهانت
مانت» يسألني إذا كنت أقبى الاشتراك في الورقة. وبدأ لي
عسيراً أن أصدق.. وشعرت باضطراب وخوف وصممت على
الفور أن أرفض، ولكنني ما لبثت أن استرددت شجاعتي وفكرت
في أن هذه فرصة لا تموض لندق المسمار الأخير في بحث
الخرافة الكبرى خرافة التمييز بين المرأة والرجل.

واستلقيت على مقعد قريب أستريح من وقع المفاجأة وأحدث
أستعرض حياتي.. وأحنم لو وقع هذا الحادث منذ عشرين عاماً
فقط لما صدق أحد ولكن خرافة أو أسطورة من أساطير الهمد،
فقد كانت السياسة والوطنية عالماً بعيداً مطلقاً لا تستطيع المرأة
أن تسلك السبيل إليه وكانت العاهلات والمتعلمات على السواء لا
يطعن في أكثر من البيت و الزوج والأولاد، فإذا ما تحررت
إحداهن قليلاً لم يتجاوز تحررها نطاق الحديقة الاجتماعية أو
النشاط الثقافي والفني.

وتكررت كيف حدثت المعجزة . منذ عشرين عاماً فقط أعلن

لهاتف عائدي عمره على لسير ماشيًا إلى «دندي» لخرق
فوايين المسح ولقد نُزع المهاتما يومئذ بذاء حصًا عني النساء
دعاهن إلى الخروج ليشاركن زوجهن في المسير الطويل إلى
الحرية..

ألف امرأة هي السجن

وسرى لنداء يومئذ كشررة مقدسة وحرحت الألف
حارحت ور عن تقاليد وظلمات و«علال الألف لسين»
وقيصر في ذاك الغم عني ألقى امرأة وحكم عيهر بالسحر
مبدأ تتر وح بين ستة أشهر وست سنوات وكنت الشجاعة
والتصحية للثان «نديها» - حتى العلاجات البسيطات - مشر
دهشة العالم كله.

وفي عمرة هذا لكهـج تذكرت «سن»... كانت صديقتي وقريبة
لي من بعد.. وكانت من سيدات المجتمع الرافق وعلى جانب
كبير من الثقافة والجمال وذهبت إليها ذات يوم من أيام عم
١٩٢٦ لأقنعها بالاشتراك معنا وكنا أقلية ضئيلة في ميدان
لكهـج منتظرت إلى مااستغرب وقاتل ولدا اشتراكه إني لا
أحد ما دعوني لأن أزل أولادي ويني لأتشرد في الشوارع
ر هذا من واجب الرجال وليس من واجبي إن و جسي أن أخدم

روجى وأوجب له أولادا قُلت لها ولكن عليا أن تحرر بلادنا
أيضا وهذا جزء من واحدنا ومن صالحنا لأنه تحرير لنا إلى
وإنك ولساء الهند جميعاً.

واستدارت إلى صفحة وقالت إنى أستمع بكل الحرية التى
تحت إلها المرأة المهدبة لحنزومة، وليس هناك من يشتدق
بالحرية إلا أمثالك اللاتى هجرن بيوتهن وزواجهن وأولادهن
ولقد حاولت يومئذ أن أرفع عن نفسى وأن أثبت لصديقنى
أن روجى وأولادى لا تقصهم السعادة أو العاية ونى أصب
إلى واجبى بحوهم واحد حر نحو ونى ، ولكن بلا حوى.

لقد وقع هذا فى عام ١٩٢٦ وفى عام ١٩٣٠ كانت هذه
السيدة نفسها وهى حامل فى شهرها الأخيرة تقود
مظاهرة كبرى فى حركة العصيان الهندى

ولقد قصص عليها وأودعت السجن وأنحت لزوجها ولده
لربيع هناك... إتماماً للوجب

فى غرفة الوزير لأول مرة كانت لدى فكرة غامضة ضئيلة عن
تبعات الوزير حينما بحث غرقنى فى بناء وزارة لصحة لأول
مرة.

ولقد كانت معرفتى بشئون الحكم تاهمه ولا تنعدى المزاب

القليلة التي كنت أجلس فيها أبي وأنا فتاة صغيرة إلى المجلس التشريعي في «دهلي» و«سملا» وكنت أجلس في شرفة الروار وأشاهد أبي وهو يتزعم حزب «السوارح» .. أي لاستقلال - لمعارض للحكومة.

وتقدم مني شاب رقيق مهذب.. وقدم نفسه قائلاً إنه سكرتيري الخاص، ولم أفهم ماذا يعني، ولكنني لم أشأ أن أسأل لكي لا أفصح جهلي..

وأحدث أجول ببصري في العرفة التي ساقضى فيها معظم وقتي وأتأمل ، كان في وسطها منضدة كبيرة ترجمها.. وإلى حوار الحائط تعددت «أريكة» حلدية عريضة وتبعثرت في كل أركان العرفة كراسي ومناصد صغيرة وأرفف كتب قديمة . مما جعل العرفة تبدو وكأنها إحدى غرف مر دات الأثاث القديم

وهدمت عيني سجادة حمراء فاقعة على جدار الحائط الأخضر وكان هناك طابق من الغبار المتراكم قد علا كل شيء. هي العرفة، وكلما أخذت أمعن النظر فيما حولي غاص قلبي في جنبتي وأحسست بالتعاسة كيف يمكن أن أجلس في هذه العرفة الكئيبة وكيف يمكن أن أصرف فيها شئون الدولة»

وانتفت إلى سكرتيري الخاص وسألته نائب وتردد هل

أستطيع أن أزيح شيئاً من هذا الأثاث؟ وشعرت بالراحة حينما
أجاب - بعد تردد - أنه لا مانع.

واستحسنت شجاعتي وأخذت أصبر الأوامر وبعد لحظات
كانت السجادة الحمراء العاقعة قد اختفت. وكان كل الأثاث
تقريباً قد هبط إلى قاع المخزن.. واستطعت ببعض ابتسامات
وكلمات إطراء أن أستخلص من معاون الوزارة بضع ستائر
خضراء. ولما لم تستطع الابتسامات أن تستخلص منه سجادة
خضراء أيضاً أرسلت إلى منزلي هجاء لي بسجائدين
مياسيتين. على الفور شعرت من ساعدي وأخذت بمعوية
المعاون والسكرتير وخدم بغير أماكن وضع الأثاث وروباه إلى
أن أحسست بأنني أستطيع أن أقضي بها بعض الوقت دون أن
أشعر باليأس والتعاسة..

لا زال هناك شيء ناقص في الغرفة

الأرهار..

وأرسلت أحد الفراشين ليشتري زهرية من معرض
مصنوعات الحكومة لمواحه لوزارة ولما عاد طلعت إليه أن
يملاها بالورد وكنت قد رأيت منه في حديقة الوزارة فنظر إلى
الفراش في صمت ودهشة ولم يتحرك وكررت عليه الطلب

فتسرع بالخروج ويبحث إلى معاوني الورقة.

وكانت أميرات الفرع و لإصرار تندو على المعاوين وأخذ يستمع تصرف شعاعته ليقول. ولكن يا صاحبة المعالي كيف توضع الأزهار هناك؟ لم يحدث قط أن وضعت الأزهار في عرصة الورير وقلت له لم يحدث قط.. من سيحدث الآن وماذمت لا تريد أنت أن نخضر الزهور سنزل اما لأقصفها بنفسى..

ويبدو أن منظر «معالي الوريرة» وفي يده مقص تقطع الأزهار في حديقة الورارة قد أزعج المعاوين أكثر مما أزعجه وضع لأزهار في عرصة الوريرة فتسرع بالخروج قائلاً إنه سيحضر ما أمرت به على الفور

بدأ الجد والاحتهد اليوم.. فقد وجدت على مكتبى كوماً من اللغات لم أكد أتأملها حتى أخذت أفكر كيف سأستطيع أن أقصص عليها أو حتى أن أقرأها.

وبالطبع لم يكن هناك من يعلمنى قراءة اللغات.. ولم أشأ أن أبدي سهلاً ولداً لم يكن هناك مما من من الاعتماد على النفس وأخذت أقف فيها واحداً تلو الآخر حتى عثرت بملف يد، من طرى سهلاً متواصلاً.. فأنخذت أقرؤه من الصفحة الأولى ولحس الحظ كنت لمسألة معقولة سائلة فاستغرقت في

دراسنها إلى أن أحسست الشجاعة لأن أفضل فيها.
وعلى الفور أرسلت القرار لسكرتيرى ليبدأ تنفيذه ويبدو أنه
كان صائباً معقولاً لم يسخر به أحد. فشجعتى هذا وتحسنت
و قتحمت باقى الملفات ولم تعد تخيفى.

بدُ تحضير الميراثية

وقد تحول كل شيء حولى إلى أعداد و أرقام أخذت تصادىنى
حتى فى نومي وأحلامي.

ولما كنت لم أدرس شيئاً قط من لحساب وعصر أشهر
المدرسين عن تعليمى مبادئ الأولى فقد بدت لى التحرية مرعبة
وفى لحظة من لحظات اليأس كنت إلى سكرتيرى البرلمانى
قائلة «إن الأرقام تفرعننى ، أرجو عمل شيء» ولم يبطئ رده
الذى قال «الأرقام تفرعنك» لا أصدق ب صاحبة المعالى.. أنت
التي واجهت المذاهب و صنعت مستنقس الأمة تخفيك الأرقام؟ أنت
فقط تريدن نشجعتى وأرفق رده مذكورة عن أسرار الميراثية
جعلت من الأرقام شيئاً مفهوماً.. لا يخف.

يبدو أننى لم أكن أعامل أعضاء البرلمان كما يسغى.
لقد كنت أنظر إليهم كما كنت أنظر إليهم وأما هتاة صغيرة
أى كأصدقاء أبى وربائى مكتبه أو كالمسيوب الذين كانوا

يزورون بيتنا خلال سنى الجهاد.

ولقد كان عسيراً على حقاً أن أنظر إليهم الآن كخصوم أقوياء الشكيمة يتربصون بى الفرصة حتى حان موعد خطاى الأول فى البرلمان.. فقد قدم قانون تنظيم الإدارة الجديد. وكان مفروضاً أن يقدمه رئيس الوزراء ولكنه مرض أو تمارض لسوء الحظ.. ووقع اختياره - لسبب لا أدريه - على لأقوم بالمهمة ولقد جاء إلى من همس هى أذننى بأن هذا هو أهم مشروع قانون تقدمه الحكومة وأن مصير الوزارة - ي - لى - متوقف عليه.

ولم تكن لخطابة فى الميادين العامة جديدة عى . ولكن لم يسبق لى قط أن خطبت فى برلمان.. ولذا كنت كلما اقترب الموعد أحسست بقلق وتحاذل شديدين حتى تذكرت فجأة ما قاله لى أبى مرة «لا تفقدى أعصابك قط.. أعدى خطابك بعناية ثم اسبه تماماً وتكلمى وكانهم لا يعرفون شيئاً عن الأمر» واستعدت شعاعى ورياطة جاشى ووقفت لأخطب. ولم أحس بف قلت لا جيب «شدت التصفيق ومر القانون سلام.

حينما كانت السياسة مجرد حلم بالنسبة لى كنت أقرأ الصحف بشغف وإعجاب خاصة حينما تنشر أحاديث العظماء سواء أكانوا سياسيين أم رياضيين أم من نجوم الميما..

وكان يبدو لي أنه ليس في العالم مهنة أعظم وأمتع من مهنة الصحفي، هذا الذي تفتح له كل الأبواب والذي يستطيع أن يقتحمها كلما أراد والذي يصوغ بقلمه وما يكتب عقول الناس وقلوبهم.

ولقد ظل هذا اعتقادي حتى أصبحت ممن تقتحم أبوابهم وتشر أحاديثهم وأراؤهم على الناس، فتغير الاعتقاد تماماً وأمنت أن هناك خطرين لا يمكن دفعهما التليفون والصحفي وإذا كان التليفون يمكن التخلص منه برفع السماعة فإن الصحفي لا خلاص منه مطلقاً بل كلف محاولات التخلص منه وجده أكثر إصراراً وما يكفي لأن يثيره حمرة الخجل في وجهه لرجل لعادي ويدفعه بعيداً لا يتعدى عنه صاحبا دقمرات ماء على ظهر بطة كما يقول المثل.

وذاث يوم كان على أن أخطب في اجتماع سياسي مهم واندفع إلى جماعة من الصحفيين، شبان المتحمسين يطلبون مني نص الخطاب وقلت لهم إني لا أعد خطبي وأب لقلبها ارتجالاً. ورجوتهم رجاء أخوياً حاراً أن ينقوا الخطاب كما ألقيه، ووعدوني وعد رملاء شرفاء فاطمأنت وذهبت إلى الاجتماع منشحة الصدر..

واستيقظت صباح اليوم التالي على أجراس كل تليفونات
البيت تدق من كل صوب لتسأل عن التصريحات المتناقضة التي
نشرت في خطابي

لقد نشرت كل صحيفة نصاً مختلفاً ولم تنشر إحداها ما
كنت أريد أن أقول.

ومرة أخرى كان على أن أخط في كلية للبيات ألفت خطاب
دعوتهم منه إلى التحرر من كل الخرافات والإيمان بمساواتهم
المطلقة مع الرجال لأن كل تفريق بينهما إنما هو حراة لا
أساس لها من الحقيقة.

وفي اليوم التالي ثرت ثورة الآباء والأرواح حينما نشرت
الصحف بعنوانين ضخمة.. «مسز بانديت تقول .. البيت خرفة
احترعها الرجل» وكنت أعتقد أن هذا قصور طبيعي في
صحافتنا الهدية ولكن ريارتي لأوروبا وأنا وزيرة أفسست أن
صحافتنا المتواضعة أفور شرأ وأحف وطأة من الصحافه
الأوربية الكبرى.

وليكم مثلاً

لم أكد أميط من الطائرة في مطار «كرويدون» في الساعة
الثانية صباحاً حتى وجدت عددا من لصويين والصحفيين

أحاصوا بي في المطار وأصبروا على أن ادلى لهم بكل شيء واستطعت بصعوبة أن أقنعهم بتأجيل ذلك للعد بعد أن وعدتهم بمؤتمر صحفي.

وتسلت إلى حوارى مخلوقة صغيره رفيقة همست هي أدنى ثأثها صحفية ناشئة وترجو أن أختصها بسق صحفي لتثت حد رنها بين الصحفيين الرجال، وشعرت بتخبر لسات حسي حاصة وكانت هذه أول صحفية أقابلها بحميتها معى هي سيارتى إلى الفندق.

وظللت إلى ساعة متأخرة من الليل أحيب عن أسئلها وكنت عن امرأة الهندية.. ما لها وما عيها وتشعب لحدث حتى انتهى بنا إلى الرياضة الهندية وأخذت أحدثها عن رياصت لهنديه «اليوجا» مراتها وفصائلها، وأصرفت العصفورة مرحة منشرحة ونمت مستريحة لأنى فعلت معروفً واستيقظت بعد ساعات لأحد لخير الأول فى صحيفة «العصفورة المرحة» هو «الجزيرة الهندية تبدأ يومها بالوقوف على رأسها»

كلما نظرت إلى هذين العامين لذين فصيصهما وريره احسست أنها تحبة رةة - لقد مرت ساعات من العشر ومن خيبة الأمل ومن الشعور باليأس والعجز. ولكن الامر الذى لا

شك فيه هو أن هذه الساعات على اختلاف ألوانها لم تضع
هباء.. ولا شك أن الدروس التي تلقيتها زادت من قدرتي على
مواجهة كل شيء.

ولقد كان خير ما فعلت به هو أنني ساهمت - ولو بجهد
صغير - في دفع الخرافة الكبرى بأن المرأة لا تستطيع أن تؤدي
عمل الرجل .

◊ أغنية من المرمز

«هذا ليس قبراً.. هذا أغنية حالدة من المرمز...»

(نهر)

دق باب غرفتي في ساعة مبكرة جداً من الصباح. وكنت غارقاً في النوم، وقبل أن أفتح عيني لأرد كان قد دخل وجلس ووضع ساقاً على ساق وتحسس في جيبه ليخرج علبة السجائر، وأنا لا أطيق رائحة النخان في الصباح.. وقال بلا كلفة:

- حينما ترور أجرا يجب أن تستيقظ مع إشرافة الفجر وتجمع أزهار (الشندر) كما كان يفعل أناطرة المعول..

وابتسمت، ونظرت إليه موافقاً، وكنت بعد أسبوع في الهند قد تعودت هذه المأاذج ونقلت كل ما يصدر عنها.. واستنطرد يقول:

سمى مبارز علي حان وأنا دليل فندق لاميردال باحراً وأن الذي سأصحبك اليوم لزيارة التاج محرو ولقلعة لخمراء وأطلال فتح بورسكري، ولقد كنت مفاجأة عجيبة لي وهذه أول مرة أقابل فيها مصرياً، وقد كنت خنمى أن أقابل مصرياً وه هو قد تحقق، وأنا سعيد، ولقد كنت أعتقد دائماً أن أقتر من يستطيع أن يفهم المعول وراث المعول هم أنتم المصريون سنا

المعابد والمساجد والأهرامات، ولقد كان هناك شيء واحد يجمع بين المصريين والمعول هو البناء.. فن البناء وعبقريته البناء، والتعبير بالأعمدة والأبراج والقباب، والشيء الآخر الذي تحسه في البناء ولا تعرفه ولا تتركه.. روح المبنى تماماً كروح الملحمة أو التمثال أو الأوعية وهو شيء ستلمسه اليوم كما لم تلمسه في أي مكان آخر في العالم، ودققت الجرس وجاء خادم الفندق وطلبت الإفطار وسألت مبارك على خاى هل أطلب لك إفطاراً ولكنه قال

- إننى لا أكل شيئاً يوم أذهب لزيارة التاج بل أصوم وأكاد لبس ملابس لإحرام، تماماً كما لو كنت ذاهباً إلى مكة الشريفة، إن رؤية عمل فننى مثل التاج تحتاج إلى تحضير وتركيز واندماج، وهذا ما حثت لكى أبنيك إليه، إننى هنا منذ عشرين عاماً، ولقد زرت التاج أكثر من ألف مرة، ولكننى فى كل مرة لأبد وأن أقف خاشعاً متنبلاً مرحاً بالحياة وكائننى أراه لأول مرة.. فرحاً بالحياة، هل تستغرب أننى أحس بالمرح بالحياة أمام قبر امرأة؟ ولكن قبل البناء كان فنهم الأول والعبقري هو الحياة نفسها، كانت الحياة لديهم فناً جميلاً، فى كل شيء فى الطعام والشراب واللباس، وفى الحب والحرب ومن الصباح

حتى النساء، هل تعرف أسرة ليس فيها إمبراطور عظيم. إلا هي حياته حب عظيم وكتاب عظيم وأثر عظيم
إننى أعتقد أن ليس هنال حضارة تقربهم سوى حضارتكم أنتم المصريين. إننى أعيش فى الحضارات القديمة عشرين عاما الآن، وأما أهيم من عالم سحرى إلى عالم سحرى، وأنا طبعا لم أبدا حبتى دليلاً، ولم يكن فى برنامج حياتى أن أصبح دليلاً، ولا شىء أضيف به مثل أن أكون دليلاً، خاصة حينما أرى هؤلاء الأمريكين والغربيين وحينما يقفون ليبتدلوا كل شىء، ويسألونك فى صخب وضجيج كم تكلف هذا البناء أو يقفون فى تفاهة جوفاء لينادوا.. كم هو جميل.. جمال المليون دولار..

- وماذا كنت تريد إذن؟

- لقد جئت إلى هنا رائداً كنت طالبا فى الجامعة وجئت فى زيارة عابرة، ومن النظرة الأولى أحسست أننى لست أعود للجامعة وأحسست أنى أتمنى إلى ههنا إلى هذا المكان أو على الأصح إلى هذا البناء، وعدت إلى الجامعة وأنهيت دراستى فى التاريخ، وتخرجت، وكان هناك قلق مستمر فى نفسى لم يسكت إلا حينما جئت إلى هنا، وأقمت هنا، ولم أجد سوى أن أعمل دليلاً.. إيسى أشعر بالطمأنينة والرصا والسكون ويعرج عميق فى نفسى

حيثما أستيقظ كل صباح وأحس أنى أستطيع أن أرى التاج أو أجد في أطلال متح يورسكوى أو القلعة الحمراء أو حتى أنففس نفس الهواء الذى تنففسه رجال ونساء وحسان وأباطرة المغول..

إن التاج فى حباسى، تماماً كما كانت معنار محل فى حياة شاه جيهان..

- ومتى سيذهب التاج؟ -

- حيثما تستعد ماديا وروحيا، قم واعنسل وأعد نفسك إننى أريدك خاصة أن ترى التاج كما أحب أن تراه.. إيسى لست متحمساً قط لضيوف اليوم رجال ونساء أعمل لا روح فيهم، يطوفون العالم ليربحوا المال أو ليسكتوا ضمائرهم القلقة أو لينحثوا عن مغامرة مثيرة، بلا اعتبار أو احترام للكون..

وهل تدري كيف أريكم التاج محرق؟ إن لى طريقة خاصة، وأسوما هريدى، لى أنا فقط، ننى لا اذهب إلى التاج مباشرة ولا أواجه التاج مرة واحدة وحها لوحه، ولكننى أذهب إلى القلعة الحمراء، على بعد عدة أميال من التاج، وهى شرفة الغرفة لتي سحن فيه الإمبر طور شاه جيهان أنطلع فى المرأة الصغيرة، إن قصة هذه المرأة هى قصة التاج

- دعها حتى أغتسل..

ودخلت أغتسل وأعد نفسي للرحلة ولكنه لم يسكت، وتسمع الحديث بصوت عال

- لقد سجن أوريجزيب الصارم المتقشف أماء حيهاان هي فاعة بالقلعة الحمراء، ولم يحد أبوه ما يصنه عنه ولا ما يريده من الحياة سوى أن يرى قبره، ولم تكن هناك وسيلة، ولم يكن هناك حل، فقد كان القبر يبعد عن القلعة عدة أميال، ونحويج مهندس عبقري من مهندسي المعول ووضع له هذه المرأة السحرية هي أحد الأعمدة، وهي امرأة تستطيع من بعد هذه الأميال أن تعكس له صورة التاج، وكان يقضي يومه كله أمام هذه المرأة وكان الشيء الوحيد الذي عزاه حتى مات في السجن، وراح ضحية به التزمت المتقشف الصارم.. لقد كان حبا عجيباً.. حبا كاملاً فيه كل شيء، لمجد والخلق والهريمة والمثانة.

إن قصص الحب عادة لا تكتب كاملة وكثيرون يريدون أن يخفوا جوانبها الضعيفة أو القبيحة أو المريرة، ولكنني أحب أن أروي القصة كاملة، لقد خلق الله الحب مريج من الأرض والسماء، ولا يحدي أن نحاول أن نجعل منه حرامات تطربنا ولا

تعلمنا لقد كان شاه جيهان رجلاً وكانت ممتاز محل امرأة .
وقصتهما قصة رحى وامرأة، وعلى هذا الأساس يجب أن
تروى..

لقد كانت ممتاز محل زوجة لأحد رجال البلاط حينما رها
الإمبراطور شاه جيهان في احتفال لزهور في عيد البروز،
أجبر، حفلات البلاط، وكانت ممتاز محل ابنة أصف حار ورير
(جهانجير)..

- قبل قليل عند هذه الأسماء ي صديقي مدرك.

جهانجير، فتح الكون هو الإمبراطور العظيم والد شه
جيهان، ولقد دارت كل حياته حول امرأة هي (نور جيهان) نور
لكون وهذه قصة أخرى مجيدة، وقد أروىها لك اليوم أيضاً،
لأنها الحلقة الأولى من قصة شه جيهان، وكان أخوها أصف
خان، والفتاة المفضلة لدى عمته الإمبراطورة العظيمة، ولكن
ممتاز محل، كانت فتاة رقيقة حاملة تختلف تماماً عن نور
جيهان، التي كانت إمبراطورة بكل ما تتضمن الكلمة والتي
كانت كل شيء في حياة الإمبراطور وحياة الإمبراطورة أيضاً
وكانت محبة عاشقة بقدر ما كانت سياسية حارمة بن بقدر ما
كانت محاربة قائدة، لقد قادت بنفسها الحرب ضد الجنرال

المتنرد (محبة حان) لتتقذ زوجها الموشك على الهلاك جهانجيز.
وحبيب سقطت فى الأسر وحكم عليها بالإعدام سداكها (محبة
حان) ماذا تريد قبل أن تموت فقالت أريد أن أرى روحى.. مرة
واحدة، وحينما شهد محبة خان اللقاء، اهترت نفسه ولم يملك
سوى أن يغفر عن الاثنين..

لا تدعى أسنطرد.. إننى أريد أن أروى لك قصة التاج..
* كللى اذان صاغية به صديقى مبارك..

- لقد ورث شاه جبهان لحب عن أبيه، وحينما لتقى بممتار
محل فى حفلة لتيروز، وجد نفسه على الفور، إن مرأته هى
المرأة التى تفتح لك أسرار الكون وأسرار نفسك والتى تحس
الحياة معها فيضاً متجدداً مساباً وهذه هى أعظم وأندر هذه
المرأة وحينئذ تظل حياتك قلقاً حديقاً ولو أحاطت بك بساء العالم
كله، إن حكمة الطبيعة فى الحب عميقة عجيبه، هى حكمة الكون
كله، وهى تخلق لكل رجب عظيم امرأة عظيمة، وكل مهمته أن
يبحث عنها وأن يجدها، وأن يحصل عليها مهما كن الثمن،
يقدرن الطبيعة العميق وبحق بناء لكون أو على الأصح واحب
ساء الحياة والكون.. أشرى لماذا أشرح لك هذا؟
- لماذا؟..

- لقد رأى شاه جيهاں معنار محل وأدرك أنها امرأته وأدرك أنها أيضا تنتمى إلى روح امر صغير من رجال البلاط فقرر أن يتخلص من هذا الزوج، وبعض المؤرخين يقول إنها بداية هيبة لقصة محيدة ولكننى لا أرى هذا..

- أن يتخلص من روح ليحصل على امرأة. هذا ليس شئ يا صديقى مبارك..

- لا تضع المسألة هكذا بل هو يقف رجل ضعيف عقبة بين روحين عظيمين، وأن يحول بين الهدد وبين كل لعدل والرحمة والمجد والحمل الذى نعمت به، إن بعض الرجال الضعاف كالتفيليات يلصقون منجسار وأرواح النساء، العظيمات، ولا يستطيع هؤلاء مصف لتخلص منهن، إن التخلص من رجل ضعيف أفسى بكثير من التخلص من رجل قوى أو عظيم، ألا تدرك هذا، ألا توافق عليه؟

- إن هذا جزء من القصة.. أرويه فقط وبحكم عليه بعدد. وتزوج شاه جيهاں من معنار محل وتزوج فى نفسه كل ما تفجره امرأة عظيمة فى حياة رجل عظيم وكان العصر الذهبى لكل إمبراطورية لغول، لم تكن (معنار محل) كما قلت لك كمعنتها نور جيهاں تتدخل وتحسم فى السياسة والاقتصاد

والحرب ولكن كانت هذه رقيقة حاملة دفة ناعسة حقت الحب
والحب فقط، وكانت تلك اللمسة الساحرة التي تطوى كل
من يقترب منها . ولقد كان الملاح في عصر جهانخير قائماً على
المجد، أما في عهد شاه جيهان فقد كان قائماً على الحب
وحده . ولكن ممتاز محل لم تكن مجرد أنثى، لقد كان دكاؤها
والهامها هو أثمن ما هي الإمبراطورية ولم تكن تشارك في
الحكم أو في الحرب، ولكن كانت مستشارته الأولى و الأخيرة،
وكانت من بعيد تشير في كل شيء... لم يكن ينشئ حديقة ولا
يقيم مسجداً ولا يبنى قصراً، وهو قد زين الهند كلها بأن جعل
حدائقها ومساحدها وقلاعها وقصورها : لا وترى (ممتاز
محل) التصميم وتوافق عليه، ولم يكن يقضى أو يبرم أمراً أو
يصدر حكماً أو يعين حرباً قبل أن تشير (ممتاز محل)، ولم تكن
هي التي تطلب أن تضع أبنها، من هو الذي كان يحمل كل شيء
إليها، وينصت حتى تجو إلهامها ودكاها وتشير..

وبين ذراعي (ممتاز محل) قال كلمته المشهورة (إذا كان
هناك فردوس على الأرض مهاغو.. مهاغو)..

وعاش شاه جيهان في هذا الفردوس تسعة عشر عاماً،
وعاشت الهند كلها معه في هذا الفردوس تسعة عشر عاماً

وأنجبت له أربعة أولاد وبنتين، سجل التاريخ أسماءهم جميعاً،
داراشيكو الفئار، وأورنجزيب الصارم، وروشنارة الحاملة،
وجيهاناره الوهية التي ظلت إلى جوار والدها حتى لحظته
الأخيرة..

وفي كل مرة كانت تنجب علماً كان كل شيء كما قال يولد
في الإمبراطورية في حياته، كان كل شيء يستعد لينتظر
المولودة، وكان كل شيء يقف في حياته، ويظل إلى جانبها حتى
تلد، وحينما كانت تطب إليه أن يعاينها وأن لا يراها وهي
تستعد، كان يبكي ويقول لها إن أحمل ما في حياته هو رؤيتها
وهي تحمل في أحشائها أسرار الكون والخلق والإبداع، وتغني
وتجمل بها الحياة.

ولقد ماتت (ممتاز مصر) في لحظة كهذه.. ماتت ميتة امرأة
مجيبة وهي تلد، وهي نهب الحياة إنساناً حديداً.. وكان إلى
جوارها شاه جيهان.. وكانت آخر كلماتها إليه (لا تتزوج بعدى
لن تحب امرأة مثلى، لا تنس أن تزور قبري) أنانية أو تقانياً أو
مروراً أو وفاء سمه كما تشاء

ومات كل شيء بالنسبة لشاه جيهان إلا ذكرها ولقد صمم
على أن يعيش لهذه الذكرى وأن يجعل قبرها شيئاً خالداً لم

يشيد مثله لامرأة، قبر حيا متجددا تراه كل يوم فيها لك أنه
بنى اليوم فقط وأتلك تراه لأول مرة . ويبحث يطلب المهندسين
والفنانين والبنائين والحطاطين من روم ومن القاهرة ومن
سمرقند، ومن بكين، لقد صمم على أن يجمع الإنسانية كلها في
هذا القبر..

ولم يعد هناك من يشغله سوى بناء هذا القبر . ولقد كان
يجتمع من الصباح إلى مساء مع مهندسي الممر القادمين من
إيطاليا، أو الحطاطين العرب القادمين من بغداد أو فاسي
للسيفيساء، القادمين من الصين أو السائين القادمين من نجاري
وسمرقند.. وحدث بين هؤلاء جميعا القصة . ولما لم يسبق أن
تألف وتنازل هذا الجمع المتدين من الفسايين في بناء واحد مثلما
حدث يومئذ، وقد هزتهم جميعا من أعماقهم القصة، ودخلت
(ممتاز محل) في حياتهم كلهم وألهمتهم نفس النقاء و لصفاء
والعمق الذي كانت تنشره وتلهمه في حياتها، وأراد كل منهم أن
يهب أحمل ما في روحه ليخلد قصة حب عظيم، وأبى مهعة أجمل
للفن والجمال وأعمق إلهاما من تحليل قصة حب عظيم..

ولقد ترك كثيرون منهم أوراقا سجلوا فيها أحاسيسهم
ومشاعرهم خلال البناء، وهي كلها قصائد تحية للكرى هذه

المرأة العجيب، ونقد كتب أحدهم بقول لقد سكبت روحى كلها فى
هذ القبر، وإن أسى بعده شيناً لأنه لم يعد لى ما أستطيع أن
أخلق به أى شيء جديد.

وطل كل هؤلاء سبعة عشر عاماً طويلة يسون حتى حرج
(لتاج محل) تماماً كما تصوره شاه جيهان، رمزاً لخلود الحياة
لا لنهايتها، ولم يكن بناء، ولكن أعية من المرمر كما قال جواهر
لال نهرو

وحينما تم البناء أحس شاه جيهان أنه يريد أن يموت، وإن
كل ما يريده من الحياة قد تحقق. وأنه لم يعد له سوى أن يذهب
إلى العالم الآخر إلى حيث تحيا ممتاز محل، وإلى حيث لا
يفترقان أبداً إن التقيا..

ومرض شاه جيهان، وهى للجميع أن ساعته قد أدت، وكان
هو يستعجى الموت كل يوم، ولكن بدأت بمرضه قصة أخرى
مريرة دامية هى قصة الصراع على العرش بين أبنائه الأربعة،
وانشق أوريجريب، ثائرا فاسيا متدينا هارما كحد السيف
وناقماً على أبيه.. على أسرته ويذخه وضعفه أمام امرأه حتى
ولو كانت أمه.

وهناك أوريجريب بثخوته الثلاثة واحدا واحدا وقبض على

أنه وسجنه في القلعة حيث ظل سجيناً مريضاً عشر سنوات طوال، ولم يكن يعريه فيها إلا المرأة الصغيرة التي كان يقف إلى جوارها، وينسى كل شيء. ثم سته (جهدرا) التي بقمت على أخيها، ولحقت بأبيها لتقف إلى جواره خلال محنة التعيسة..

لا . لم يكن تعسفاً، إن من يحب مثل شاه جيهان، ومن يتعذب في حب امرأة كممتاز محل لن يكون تعسفاً، إنه يستخلص من الحياة أجمل وأبهر ما فيها

ولقد كان شاه جيهان يقضي أيامه الأخيرة، بصلي ويذكر ممتاز محل، وينظم الشعر، و ينتظر اليوم الذي يعبر هذا العالم إلى عالمها.

ولم يصق بالسجن، ولم يحرق على ابنه، ولم يك لصيره، لقد حرر الحب روحه، وأغى الحب عالمه الداخلي، وكان سجنه الوحيد هو عالم ليس فيه (ممتاز محل)

وبدأت الهند كلها تهتز لقصة شاه جيهان، ونشبت قصة شاه جيهان، وتدقها الرواة والشعراء، ومنشدو الملاحم والأساطير، ولم تلهم قصة حضارة لشرق ولغرب أبداً ما ألهمته قصة حب شاه جيهان وممتاز محل.

ولقد جاء في العام الماضي (روبرت مين) ليكتب لقصة من

جديد، ليقدمها لهذا العصر الخاوي الأجوف، وليذكره بالقيم الكبرى التي أفلست منها الحضارة.. قيم الحب العميق العظيم الخلاق..

ولم يكتب (روبرت مين) شيئا لقد كنت أنا الذي رويت له كل شيء، وباللغة على كل شيء.. وطبعاً لم يشأ أن يذكر من الذي دله على مغزى القصة وجوهرها، ولم أهتم.. إن كل ما يعينني هو أن يروي هذه القصة رجل يحسها ويعيشها ويقدمها لهذا العصر ولكل عصر.. وليس هناك ما تحتاجه الإنسانية مثل مخلصه عاطفية تنقذ روح الرجل وترفعها وتدفعها كما فعلت ممتاز محل..

لقد مات شاه جيهان، ولحق بممتاز محل. وفي التاج محل ترقد رفات (ممتاز محل) وإلى جوارها رفات شاه جيهان.. هل هناك رجل وامرأة أسعد منهما في الحياة.. أو الموت؟..

- بالطبع لا ..

- إذن هيا بنا .. لقد استعديت للزيارة..

المحتوى

٣	قبل أن تقرأ
٩	هذا الكتاب
١٧	أسطورة الباشوات السبعة
٣٥	نساء في ثورة عراقى
٤٣	الزغوليات
٥٧	لماذا لا يكون السد بطلا
٧٣	تائه في باريس
٥٧	ليلة في روما
١١٧	القمص سرجيوس
١٣١	الأب عيروط
١٣٩	مصرى من السوريين
١٤٧	قنطرة الذى كفر
١٥٩	حسن فتحي.. المهندس الفنان
١٧١	حكيم ولادة
١٨٣	حكيم عيون
١٩٥	حديث مع الملكة نازلى
٢٠٩	حكم قصر الدويارة
٢٢٧	رحلة في قلب نهرو
٢٤١	مذكرات سجنينة
٢٥٧	يوميات معالى الوزيرة
٢٧١	أغنية من المرمر

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢٤٠٦

التنفيذ الطباعي،

شركة الأمل للطباعة والنشر

التراسلات

١١٦ ش أمين سامي - القصر العيني - القاهرة



إن الميزة الكبرى
لمحمد عودة، تلك التي
تفرقه عن أي كاتب
سواسي أو مفكر أو مؤرخ
آخر، أنه يكتب التاريخ -
إذا كتبته، ويصور
الحاضر إذا صوره - كما
يجب أن يكون. إنه
الباحث عن الجوهرة
المكتونة في قلب كل
شيء، إنه مفتش
الكون العام، وربما من
هذا يأتي تحقيقه الدائم
وذوله، فهو باستمرار
في حالة بحث دائم عن
جوهرة الحقيقة الكبرى
من الناس والأشياء
والأصناف والثورات
والتاريخ.